دراسات في المنهج (١٢)

تَوْثِيــقُ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّــةِ

وَعِنَايَةُ السَّلَفِ بِهَا

مَلامِحُ عن المنهجِ، ودلائِلِه، ومظاهِرِه، وأَثَرِه

تأليف

د. عبد الله بن ضيف الله الرحيليّ

جامعة طيبة – المدينة المنورة

تَوْثِيقُ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ

وَعِنَايَةُ السَّلَفِ بِهَا

مَلامِحُ عن المنهجِ، ودلائِلِه، ومظاهِرِه، وأَثَرِه

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأُولى
١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.
حقوق الطبع محفوظة

عنوان المؤلف البريدي
Email:ruhaili65@hotmail.com

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات ٣

مُقَدّمَةٌ **٦**

الباب الأول: تَوْثِيقُ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ مَلامِحُ عَنْ مَنْهَجِهِ ودلائلهِ ١١

توطئـــة: ١٣

مكانة السنة عند الأئمة المتخصصين فيها ١٥

مقارنة إجمالية بين جهود السلف وجهود المعاصرين ٢٠

أوجُهُ الخللِ في موقفنا من العناية بالسنة.. ٢٢

شروط قبول الرواية في منهج المحدِّثين ٢٥

أثرُ شروط القبول عند المحدّثين في حفظ السنّة.. ٢٩

دقة منهج المحدثين في الرواية ٣١

دقة منهج المحدثين في الرواية ٣٢

مِن قِصص المحدِّثين في التثبت في الرواية والنُّسَخِ والسماع.. ٤٥

مِن قِصص المحدِّثين في التثبت في الرواية والنُّسَخِ والسماع.. ٤٦

أهمية منهج المحدثين والحاجة إليه.. ٥٣

أهمية منهج المحدثين والحاجة إليه.. ٥٤

معنى الحكم على روايةِ الحديث بالصحة.. ٥٥

مظاهر توثيق السنة وأدلته ٥٨

استعراضٌ لأدلة توثيق السنة النبوية ٦٠

تصورات ومواقف تتعارض مع مكانة السنة وحجّيّتها........... ٨٤
خطأُ قاعدةٍ مشهورةٍ.. ٨٥
خطواتٌ عمليةٌ لتمييز الثابت مِن الروايات عما سواه ٨٨
خاتمة هذا الموضوع ٩٠
الباب الثاني: عِنَايَةُ السَّلَفِ بالسُّنَّة النبويَّة المعالم والمنهج........... ٩١
مُقَدّمَةٌ ٩٣
عناية السلف بالسُّنّة النبويّة: المعالم والمنهج........................ ٩٨
المبحث الأوّل: وصْف المحدِّثين وأقوالهم عن مهمّتهم............ ١٠١
المبحث الأوّل: وصْف المحدِّثين وأقوالهم عن مهمّتهم............ ١٠٢
المطلب الأول: وصْفُ المحدّثين:........................ ١٠٢
المطلب الثاني: من أقوالهم عن مهمتهم:................ ١١١
المطلب الثالث: عناوين تَرْوِي الحقيقة ١١٢
المطلب الثالث: عناوين تَرْوِي الحقيقة ١١٣
المبحث الثاني: إحصاءاتٌ تَرْوِي الحقيقة........................ ١١٤
المبحث الثاني: إحصاءاتٌ تَرْوِي الحقيقة........................ ١١٥
المبحث الثالث: مظاهر عنايتهم بالسنة ١٣٣
المطلب الأول: إجمالٌ لمظاهر عنايتهم بالسنّة: ١٣٣
المطلب الثاني: رحلاتهم وتَضْحياتهم في طلب الحديث: ١٣٤
المطلب الثالث: عناوين تَرْوِي الحقيقة: ١٤١

المبحث الرابع: منهج عنايتهم بالسّنّة ١٤٢

المبحث الرابع: منهج عنايتهم بالسّنّة ١٤٣

خاتمةُ هذا الموضوع ١٦٣

فهرس الآيات القرآنية ١٦٧

فهرس الأحاديث النبوية ١٦٨

فهرس المصادر والمراجع ١٦٩



بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدّمَةٌ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أمّا بعد: فهذه وريقاتٌ أقدِّمها في موضوعين مترابطين، وهما في غاية الأهميّة:

الأول: توثيق السنّة النبوية: ملامح عن المنهج، والمظاهر، والأثر.

الثاني: عناية السلف بالسنّة النبوية: المعالم، والمنهج.

وكان كلٌّ منهما منفصلاً عن الآخر في إعدادي له، ولكن بعد الفراغ منهما تبيَّن لي التلازم بينهما؛ فضممتُهما إلى بعضٍ في هذا الكتاب، كلٌّ منهما في باب مستقلٍّ. ولهذا السبب ربما حصل بعض التكرار لبعض العناصر الجزئية بينهما، ولا إشكال في ذلك، وقد تجاهلتُ هذا لكونِ كلٍّ منهما يكمّل الآخر.

وقدَّمتُ توثيق السنّة على موضوع العناية بها؛ لكون المنهج هو قاعدتهم في عنايتهم بالسنّة، ولكونه في الأصل هو الأساس.

وإنّ الأساس في علم رواية الحديث وتوثيقه هو شروط المحدثين في قبول الرواية وقواعدهم النظرية التطبيقية في هذا الباب، وجزءٌ مهم مِن البحث مؤسَّسٌ على قراءة هذا الجانب مِن منهج المحدِّثين.

وقد كان أصل فكرة الموضوع ليس نقلاً وتجميعاً، وإنما هو استقراء لما كان

عليه المحدِّثون مِن منهج، ولِما بذلوه مِن جهودٍ مباركة، وفي أثناء هذا نقلــتُ بعض النصوص، ووضعتها في مواضعها التي رأيتها مناسِــبةً، وكـــان بعــض النصوص المنقولة فيها بعض الأخطاء المطبعية، ونحوها، فأصلحتها، وما كان مِن العبارات قد سقط مِن الكلام أضفتُهُ بين معكوفتين.

ونقلتُ كثيراً عن "سير أعلام النبلاء" عن طريق مختصره: "نزهة الفــضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء"، لمحمــد حسن عقيــل، وتبيّن لي أن هذا التهــذيب جهد طيبٌ مشكور، جزى الله صاحبه خيراً؛ فقد قرّب السِّيَرَ، مع المحافظة على أهم خصائصه، وهو جانب الرواية والجانب الحديثيّ والفوائد عن المتــرجمِين، وتعليقات الذهبيّ، رحمه الله تعالى.

وقد سبقني بالكتابة عن موضوع توثيق السنّة بعض الكاتبين، ومما رأيته مِن ذلك:

- "عناية المحدثين بتوثيق المرويات"، د.أحمد محمد نور سيف[1]، وهو رســالة صغيرة، تتناول طرُق المحدِّثين في صيانة المصنفات، والدّقة في نقْلها بعيداً عــن العبث والتحريف والتزوير.
- "توثيق النصوص وضبطها عند المحدِّثين"، د.موفق عبد القادر[2]، وهو يتناول أصول المحدِّثين وطرائقهم واصطلاحاتهم في نَسْخ الكتب، وطريقــة تحقيــق الكتب.

ولابدّ أن أُشير إلى أن أصل هذا الموضوع كان محاضرتين ألقيتهما في مدينة

---

(١) بيروت، دار المأمون، ط.الأولى، ١٤٠٧هـ.

(٢) مكة المكرمة، المكتبة المكية، ط.الأولى، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م.

جدة، بدعوةٍ مِن مركز الدعوة والإرشاد بها، جزاهم الله خير الجزاء علـــى مـــا تسببوا به في كتابة هذا الموضوع.

أسأله تعالى أن يَنفع بهذه الوريقات، وأن يَكتب لي ما بذلتُه فيها مِن جهـــدٍ وأوقات، وأن يَجعلها حجةً لي، لا عليَّ، وأن يجعلها مباركةً متقبَّلـــةً، إنّ ربي لطيفٌ لِما يشاء.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلّم وبـــارك علـــى خـــاتم الأنبيـــاء والمرسلين.

المؤلـــف

المدينة المنورة

١/ ٦/ ١٤٢٨هـ

الباب الأول:

تَوْثِيقُ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ

مَلامِحُ عَنْ مَنْهَجِهِ ودلائلهِ ومظاهره وأَثَرِهِ

الباب الثاني:

عِنَايَةُ السَّلَفِ بالسُّنَّة النبويَّة: المعالم والمنهج

الباب الأول

تَوْثِيقُ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ

مَلامِحُ عَنْ مَنْهَجِهِ ودلائلِهِ ومظاهره وأَثَرِهِ

توطئـــة:

إن الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله محمد بن عبد الله وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين.

أما بعد: فهذه شهادة حق، رأيتُ من الواجب عليّ أداءها؛ لأني قد علمت الحقيقة واطّلعتُ عليها جملة وتفصيلاً. والشهادة واجبٌ أداؤها، ﴿**وَلا تَكْتُمُـــوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتمهَا فَإِنَّه آثِمٌ قَلْبه**﴾![3] ولاسيما حين يـــرى الـــشاهدُ المـــبطلين والظالمين يتطاولون على الحق وعلى صاحب الحق ليخفـــوه، أو يكتمـــوه، أو يتنقّصوه، ويقلبوا الحقيقة!

إنها شهادة حق حول منهج المحدثين في نقْد الروايات سنداً ومتناً.

وهل المحدِّثون، رحمهم الله تعالى، في حاجة إلى شـــهادةِ مثلـــي؟! أو هـــل منهجهم في حاجة إلى شهادة مثلي؟!.

كلاّ. ولكنه واجبٌ عليّ لا يصح لي أن أتخلّى عنه.

بل هو شرف أحببت أن أنتسب به إلى الحديث وأهله، فقد فاتني وقتهم!

وفاتتني مجالس تحديثهم عن رسول الله ﷺ!

وفاتتني رحلاتهم في طلب حديث رسول الله ﷺ!

وفاتتني جلساتهم المضنية الممتعة، لمقابلة نُسَخِ الحديث وصُحُفِه!.

وفاتني أن أكون معهم واحداً من رجال سلاسل أســانيدهم الثقـــات رواة

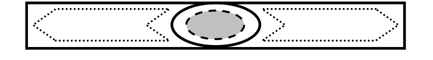
---

(٣) البقرة: ٢٨٣.

الحديث عن رسول الله ﷺ!

أفلا أتشبث -إِذَنْ- بأدنى سببٍ أتعلق به بهذا الركب الطاهر، ولـــو كــــان ذلك عن طريق أداء مثل هذا الواجب؛ رجاء أن يتحقق الأمل في غدٍ قريب، في مستقر رحمة ربنا الكريم وضيافته، مِن بَعْدِ بركته في الحياة الدنيا أيضاً!!.

أهلُ الحديثِ هُمُ أهلُ النبيِّ وإنْ * لم يَصحبوا نفْسَهُ، أنفاسَهُ صحبوا



مكانة السنة عند الأئمة المتخصصين فيها

لعلماء السلف الصالح أقوال واضحة رائعة في مكانة السنة، تتفق مع مدلولات النصوص الشرعية الثابتة في هذا المعنى. ومن أقوالهم: ما أخرجه الخطيب البغدادي بسنده إلى أيوب السختيانيّ أنه قال: «إذا حدّثتَ الرجلَ بالسنّة، فقال: دعنا من هذا وحدِّثْنا بالقرآن، فاعلم أنه ضالٌّ مُضِلّ»(٤).

وما أخرجه الخطيب أيضاً بسنده إلى عبد الرحمن بن مهدي، أنه قال: «الرجل إلى الحديث أحوج منه إلى الأكل والشرب، وقال: الحديث تفسير القرآن»(٥)

وما أخرجه بسنده إلى حسان بن عطية، أنه قال: "كان جبرائيل ينزل على رسول الله ﷺ بالسنة كما ينزل عليه بالقرآن، يعلّمه إياها كما يعلّمه القرآن»(٦).

وما أخرجه بسنده إلى إسماعيل بن عبيد الله، قال: «ينبغي لنا أن نحفظ حديث رسول الله ﷺ، كما نحفظ القرآن؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿**وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ**﴾(٧)».

وسأُورد عدداً مِن أقوالِ واحدٍ من الأئمة المحققين، هو الإمام أبو عبدالله محمد بن إدريس الشافعي، لما فيها من سموّ وبلاغة في التعبير عن مقام سنة النبيّ ﷺ، ولاسيما أنها مثالٌ لموقفِ سواه من الأئمة وأقوالِهم، على مختلف العصور

---

(٤) الكفاية في علم الرواية: ٤٩.

(٥) الكفاية في علم الرواية: ٤٩.

(٦) الكفاية في علم الرواية: ٤٤، وهو في سنن الدارميّ: المقدمة ٤٩، برقم٥٩٤، ط.البُغا.

(٧) الكفاية في علم الرواية: ٤٤، والآية: ٧: الحشر: ٥٩. (جزءٌ مِن الآية).

والبلدان.

فمِن أقواله رحمه الله: «قراءة الحديث خير من صلاة التطوع. وقال: طلب العلم أفضل من صلاة النافلة»[٨].

وعن عبد الله بن أحمد بن حنبل، قال: سمعت أبي يقول: قال الشافعي: «أنتم أعلم بالأخبار الصحاح منا، فإذا كان خبر صحيح، فأعلمْني حتى أذهب إليه، كوفياً كان أو بصرياً، أو شامياً»[٩].

ويُروى بطريقين عن الشافعيّ، قال: «إذا رأيتُ رجلاً من أصحاب الحديث، فكأني رأيت رجلاً من أصحاب النبيّ ﷺ، جزاهم الله خيراً، هم حفظوا لنا الأصل فلهم علينا الفضل»[١٠].

وقال الإمام الشافعيّ: «الأصل: القرآن، والسنة، وقياسٌ عليهما، والإجماع أكبر من الحديث المنفرد»[١١].

وقال: «لا يقال: لِمَ للأصل، ولا كيف؟»[١٢].

وقال أيضاً: «الأصل: قرآن أو سنة، فإن لم يكن فقياسٌ عليهما، وإذا صح الحديث فهو سنةٌ، والإجماع أكبر من الحديث المنفرد، والحديث على ظاهره،

---

(٨) سير أعلام النبلاء: ٢٣/١٠.

(٩) سير أعلام النبلاء: ٣٣/١٠، ومِن اللطائف هنا أنه لم يقل: (أو مصرياً)؛ لأنه فيهم، وهو أعلم بحديثهم.

(١٠) سير أعلام النبلاء: ٦٠/١٠.

(١١) سير أعلام النبلاء: ٢٠/١٠.

(١٢) سير أعلام النبلاء: ٢٠/١٠

وإذا احتَمَل الحديث معانيَ فما أشبه ظاهره...»[١٣].

قال الربيع: «سمعت الشافعيّ يقول: إذا وجدتم في كتابي خلاف سنة رسول الله ﷺ فقولوا بها، ودعوا ما قلته.

وسمعته يقول -وقد قال له رجل: تأخذ بهذا الحديث يا أبا عبد الله؟-: متى رويتُ عن رسول الله ﷺ حديثاً صحيحاً ولم آخذ به، فأشهدكم أن عقلي قد ذهب»[١٤].

وقال الحميدي: «روى الشافعيّ يوماً حديثاً، فقلت أتأخذ به؟ فقال: رأيتَني خرجت من كنيسة، أو عليّ زنّار، حتى إذا سمعتُ عن رسول الله ﷺ حديثاً لا أقول به؟!»[١٥].

وقال الربيع: «سمعته يقول: أيُّ سماء تُظلّني، وأيُّ أرضٍ تُقلّني إذا رويت عن رسول الله ﷺ حديثاً فلم أَقل به؟!»[١٦].

وقال أبو ثور: «سمعته يقول: كل حديث عن النبي ﷺ فهو قولي وإن لم تسمعوه منّي»[١٧].

«ويروى أنه قال: إذا صحّ الحديث فهو مذهبي، وإذا صحّ الحديث فاضربوا

(١٣) سير أعلام النبلاء: ٢١/١٠.

(١٤) سير أعلام النبلاء: ٣٤/١٠.

(١٥) سير أعلام النبلاء: ٣٤/١٠.

(١٦) سير أعلام النبلاء: ٣٥/١٠.

(١٧) سير أعلام النبلاء: ٣٥/١٠.

بقولي الحائط»[١٨].

وعن البويطي، سمعت الشافعيّ يقول: «عليكم بأصحاب الحديث، فإنهم أكثر الناس صواباً.

ويُروى عن الشافعيّ: لولا المحابر لخطبتِ الزنادقة على المنابر»[١٩].

أي لولا محابر المحدّثين، الذين تفرّغوا لتدوين حديث رسول الله ﷺ، وسماعه وإسماعه، ونقْد روايات الرواة عنه، لتمييز الثابت عنه من ذلك عن غير الثابت وَفْق منهجهم الفريد، ولولا حفاظُهم على الإسناد، لضاع الدين بضياع الرواية عن رسول الله ﷺ.

وأخرج الإمام الذهبيّ بسنده إلى أبي الوليد حسان بن محمد الفقيه، حدثنا إبراهيم بن محمد الكوفيّ -وكان من الإسلام بمكان- قال: رأيت الشافعيّ بمكة يفتي الناس، ورأيت أحمد وإسحاق حاضرين، فقال الشافعيّ: قال رسول الله ﷺ: (وهل ترك لنا عقيل من دار؟)[٢٠].

فقال إسحاق: حدثنا يزيد، عن الحسن، وأخبرنا أبو نعيم وعبدة، عن سفيان، عن منصور، عن إبراهيم، أنهما لم يكونا يريانه، وعطاء وطاووس لم يكونا يريانه.

فقال الشافعيّ: مَنْ هذا؟! قيل: إسحاق بن إبراهيم الحنظليّ ابن راهويه.

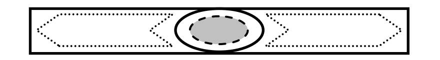
---

(١٨) سير أعلام النبلاء: ٣٥/١٠.

(١٩) سير أعلام النبلاء: ٧٠/١٠.

(٢٠) أخرجه البخاري في صحيحه، برقم ١٥٨٨، (الفتح، ٣/ ٤٥٠)، ومسلم في صحيحه، برقم ٩٨٤ و٩٨٥.

فقال الشافعيّ: «أنت الذي يزعُمُ أهلُ خراسان أنك فقيههم؟! ما أحوجني أن يكون غيرك في موضعك، فكنتُ آمرُ بِعَرْكِ أُذنيه، أقول: قال رسول الله ﷺ، وأنت تقول: عطاء، وطاووس، ومنصور عن إبراهيم والحسن؟! وهل لأحدٍ مع رسول الله ﷺ حُجَّة؟!»[٢١].



(٢١) سير أعلام النبلاء: ١٠/٦٨-٦٩.

مقارنة إجمالية بين جهود السلف وجهود المعاصرين

لقد بذل الأسلاف الصالحون من أئمة الحديث ما في وسعهم بكل أمانة وإخلاصٍ وتضحية، للحفاظ على هذا الدين نقياً صافياً في أَصْلَيْه: كتاب الله – سبحانه وتعالى– وسنة رسول الله ﷺ؛ فأدَّوا بذلك أمانتهم في نقل حديث النبيّ ﷺ إلى من بعدهم موثّقاً مصوناً، عن طريق الحفظ في الصدور والحفظ في دواوين الإسلام، تلك المؤلفات التي دوّنوا فيها السنة بأيديهم النزيهة المتوضئة، وقد أَوثقوا كل رواية بحبل وثيق هو سند الحديث.

واستمر الحال هكذا إلى أن آل الأمر إلى الأحفاد، يتلقى الخلف منهم الأمانة عن السلف، عصراً بعد عصر، كلٌّ قد اجتهد في بذل الوسع للقيام بواجب الأمانة تجاه ميراث النبوة الخاتمة، حتى آل الأمر إلينا نحن المسلمين في هذا العصر!.

فهل أدّينا الأمانة وقمنا بالواجب؟!: كلاّ والله، لقد قصّرنا كثيراً، على الرغم من بعض الجهود المشكورة، إلا أن الأمر ليس كما يجب أن يكون؛ وذلك:

لأن الواجب يقتضي أكبرَ من ذلك.

ولأن في بعض هذه الجهود رَهَقاً.

ولأنّ في بعضها خَلَلاً.

ولأن في بعضها دخَلاً.

إن في كثيرٍ من أعمالنا المتجهة لخدمة السنة في هذا العصر قصوراً وتقصيراً، فلا التحقيق تحقيق الأسلاف الصالحين من أئمة الحديث، ولا الفهم فهمهم، ولا

الإخلاص إخلاصهم، ولا الهمم هممهم!!.

إن كثيراً مِن أعمالنا هذه يَنْقُصها أدبُ السلف الصالح!.

ويَنْقصها نَفَسهم الزكيّ المخلص!.

ويَنْقصها نظافة سيرتهم وطهارة سريرتهم!.

ويَنْقصها سموّ أخلاقهم!.

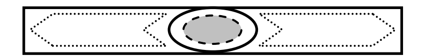
ويَنْقصها انقطاعهم لهذا العلم عن كل شاغل، لوجه الله تعالى!.

ولذلك كله جاءت كثير من أعمالنا مبتورة، وكثير منها جاء على منهج غير سديد، ومِن ثم عاد كثير من هذه الجهود على السنة بالإساءة، وعاد على تراث السلف بالتحريف والتشويه!.

فأيّ خدمة هذه نقدّمها إلى السنة؟!.

وأيّ تحقيق هذا لتراث السلف؟!.

وأيّ وراثة هذه من الخلف لمجدِ السلف ودينهم وعلمهم؟!.



أوجُهُ الخللِ في موقفنا من العناية بالسنة

يتعين على من يروم أن يُصْلِح من شأنه أن يتعرف على أوجُهِ القصور والتقصير في حاله؛ فمَنْ لم يعرف الداء كيف يأخذ الطريق إلى الدواء؟!

ولعل أهم ما نحن واقعون فيه من قصور أو تقصير في مجال العناية بسنة رسول الله ﷺ ما يلي:

١- ضعْف العناية بالسنة وعلومها قراءة ودراسة وحفظاً.

٢- ضعْف العناية بالمنهجية السديدة في فقهها.

٣- ضعْف العناية بالتعرف على قدْرها ومنـــزلتها واحترامها.

٤- ضعْف العناية بمعرفة الطريق لتمييز الروايات الثابتة من غير الثابتة عن رسول الله ﷺ.

٥- التقصير في التعرف على مصادر السنة والتثبت في اختيار تلك المؤلفات.

٦- ضعْف العناية بمعرفة مُصطلحاتِ كُتُبِها والمؤلفاتِ فيها، وطريقةِ روايتها، ومصطلحات ذلك.

ومن ذلك مثلاً: كيفية التمييز بين ألفاظ الأداء، ومعرفة رموزها.

ومن ذلك: كيفية التمييز بين المرفوع والموقوف والمقطوع.

ومن ذلك: كيفية التفريق بين الإسناد المتصل والمنقطع، والإسناد المقبول والإسناد المردود.

لقد أصبح كثير من الأحفاد عندما يقرؤون كتب الأسلاف لا يفهمون منها

ما يريده أسلافهم وما يقصدونه!!

٧- ضعْف العناية بالتربية على السنّةِ وعلى حبها وتعظيمها.

٨- ضعْف العناية بالذب عنها وبالطعن في شبهات الطاعنين فيها.

٩- ومن ذلك التقصيرِ: أن ترى المسلم ليس له همٌّ ولا برنامج في مجال دراسة السنة، سواء أكان ذلك مطلقاً، أم فيما يَجِدُّ له من أحوالٍ ومسائل.

١٠- ومن ذلك: بذْل جهدٍ ما، والأخذُ ببرنامجٍ في مجال خدمة السنة ولكن على منهجية مخطئة تسيء إلى السنة وإلى الدين بعامةٍ، إما بغلوّ، أو تقصير، أو اختلال في المنهج، أو انحرافٍ في القصد.

١١- الإساءة إلى السنة عن طريق التسرع إلى القول فيها بغير علم، وعدم الورع والتثبت في القول فيها: تصحيحاً وتضعيفاً وفهماً واستنباطاً، وتجشُّمُ ذلك قبل التأهل له.

١٢- استخدام السنّة وعلومها لغير ما جعلها الله له، ومن ذلك: تأويل الأحاديث بغير دليلٍ، ووضْعها في غير المراد منها. ومن ذلك: استخدام الجرح والتعديل للغيبة والنميمة والبَغْضاء وثَلْب المسلمين واستباحة أعراضهم، لا لتعديل رواة الحديث وتجريحهم للتمييز بين الثابت وغير الثابت من الروايات عن رسول الله ﷺ!!.

١٣- الغفلة عن المعاني الإيمانية اللازمة، والآداب المتعيّنة، والتدبر الواجب عند قراءة الحديث أو سماعه.

ومِن هذا القبيل ما يلي -مثالاً لا حصراً-:

أ - الترضّي عن الصحابيّ راوي الحديث باللفظ والنيّة، على معنى الدعاء له.

ب- الصلاة والسلام على النبيّ ﷺ كذلك باللفظ والنية على معنى الدعاء له والتعبد لله عز وجل كذلك.

جـ- استحضار المرء أنه يتلقى الحديث كأنما يتلقاه عن النبيّ ﷺ مباشرة، وأنه معنيٌّ بالأمر والنهي والإرشاد النبويّ، وأن موقفه إنما هو موقف المتأدب المتعبِّد لله بذلك -طالما أن الحديث صحيح-.

د - اعتقاد قيام الحُجّة بحديث رسول الله ﷺ، فلا تَخيُّرَ بين الحديث وأقوال الأئمة الفضلاء، **ولا يُستدل لنصوص الكتاب والسنة بأقوال الأئمة، بل الحق أن يُستَدل لأقوالهم بالكتاب والسنة، فإنْ قام عليها دليلهما وإلا لم يُعْتَدّ بها، بل عُدّتْ من قبيل الخطأ الذي لا يسلم منه بشر -حاشا الرسل والأنبياء- أمّا نصوص الوحي فلا تُخْطئ ولا تُخَطَّأ.**



شروط قبول الرواية في منهج المحدِّثين

إن لشروط المحدثين لقبول الرواية أهميةً، وأثراً في دِقّة توثيق السنّة عندهم، ومِن هذا المنطلق كانت الحاجة هنا للتعرّف على شروط قبول الرواية عندهم.

والحديث المقبول عند المحدثين هو: «ما اتصل سنده بنقل العدل الضابط عن مثله إلى منتهاه من غير شذوذ ولا علة»[٢٢].

فالحديث المقبول في منهجهم -كما يدل عليه هذا التعريف- هو ما توافرت فيه خمسة شروط هي:

١- اتصال السند، ويخرج بهذا: ما انقطع سنده بأيّ صورة من صور الانقطاع، فانقطاع السند عندهم سببٌ يضعّف الرواية؛ فلا تكون مقبولة عندئذٍ[٢٣].

٢- عدالة الراوي[٢٤]، ويخرج بهذا رواية غير العدل ومن في حكمه، وهو من لم تُعْلم عدالته، وهذا عندهم يشمل الاحتراز من رواية كلٍ من الآتي:

الكافر، والكذّاب، والمتهم بالكذب، والفاسق، والمبتدع، والمجهول، والمجنون، والصبيّ غير المميِّز.

فرواية هؤلاء مردودة عند المحدثين، على بحْثٍ في حكْم الرواية عن المبتدع، والتحقيق فيه هو: أنه إن كانت بدعته مكفِّرة رُدّتْ روايته ولا كرامة، أمّا

(٢٢) انظر:"علوم الحديث"، لابن الصلاح، النوع الأول، ص١٠، بتحقيق نور الدين عتر.

(٢٣) يُنْظر في صُوَر الانقطاع: "نزهة النظر..."، لابن حجر: ١٤٥،١٠٢،٦٦، تحقيق عبدالله بن ضيف الله الرحيلي.

(٢٤) يُنْظر في أسباب الطعن في الراوي: "نزهة النظر..."، لابن حجر: ١٠٦-١٠٧.

إذا لم تكفِّر فالصواب قبول روايته إذا كان من أهل الصدق والأمانة، أمّا إذا كانت بدعته تُجيز له الكذب[٢٥]، فروايته مردودة عندئذٍ؛ لأن الكذّاب لا يُوثَق بخبرِه؛ فما بالك بمن يَكْذب تديّناً؟!

٣- ضبْط الراوي[٢٦]، أي توافر شرط الضبط في الراوي، فإنْ كان ضابطاً ضبطاً تامّاً فحديثه يكون صحيحاً عند المحدّثين، وإن كان ضابطاً ضبطاً خفيفاً فحديثه حَسَن عندهم.

وخرج بهذا: رواية غير الضابط، فهي رواية مردودة مهما اختلفت أسباب عدم الضبط.

ويندرج في ردّ رواية غير الضابط رواية الأصناف التالية:

أ - فاحش الغلط، أي كثيرُهُ.

ب- المغفَّلُ عن الإتقان.

جـ - كثير الوهمِ في الرواية، بأن يَروي على سبيل التوهّم.

د - كثير المخالفة للثقات.

هـ - المختلِط.

---

(٢٥) حقق الشيخ عبدالرحمن المعلمي هذا الموضوع تحقيقاً علمياً رصيناً؛ فيَحْسُن الرجوع إليه في"التنكيل.."١/٤٢ -٥٢. ورجّحتُ هذا الرأي في تحقيقي لرسالة الذهبي: "مَن تُكُلِّمَ فيه وهو موثَّقٌ أو صالح الحديث"، في ترجمة عبدالمجيد بن عبد العزيز بن أبي روّاد، ورجَّح هذا الرأي-مع شيء من التقييد-الإمامان: الذهبي وابن حجر في مواضع من كتاباتهما، ولاسيما "هدي الساري" لابن حجر، ورجّحه مطلقاً-أي سواء كان داعية أو غير داعية- الدكتور محمد مصطفى الأعظمي في "منهج النقد عند المحدثين"، ٣٢-٤٢.

(٢٦) يُنْظر: "نزهة النظر..."، لابن حجر: ٦٩-٧١.

و - سيء الحفظِ.

فرواية هؤلاء مردودة عند المحدِّثين.

ووقوع الخطأ والوهم في الرواية يردّها عند المحدّثين، إن كان الخطأ في أمرٍ أساسٍ في الرواية، كما لو كان الخطأ في أصل المعنى الذي جاء فيه الحديث- ولو لم يكن الراوي من هذه الأصناف السابق ذكْرها-لأن الخطأ والوهم عندهم مردود ولو حصل من الراوي الثقة!.

٤- سلامة الحديث سنداً ومتناً من الشذوذ. وهو رواية الثقة مخالفاً من هو أوثق منه، سواء أكانت المخالفة في السند أم في المتن -وذلك إذا كانت المخالفة في أمرٍ أساسٍ في الرواية- فهذه الرواية مردودة وإن كانت روايةَ ثقة، لأن مخالفته للأوثق قرينة تدل على أنه أخطأ في روايته وأنه لم يضبطها. **وهكذا يتبيّن من خلال هذا الشرط أن منهج المحدثين في الرواية قد احتاط حتى من أخطاء الثقات!!**

نعم إنه منهجٌ ردَّ رواياتِ غير الثقات، واحتاط ودقَّقَ في روايات الثقات!!.

٥- سلامة الرواية من العلة القادحة، سواء أَكانت في السند أم في المتن. والعلة: سببٌ خفيّ قادح في صحة الحديث ظاهره السلامة منه. كأن يكون ظاهر الحديث اتصال السند، فيتبين بالتحقيق أنه منقطع.

وبهذا الشرط يتبين دقة منهج المحدثين في الاحتياط من أسباب ردّ الرواية الظاهرة والباطنة، حيث اشترطوا لقبول الرواية سلامتها من القوادح في صحتها في الظاهر والباطن.

فأيُّ منهج فريد هذا؟!

يا لله ما أَرْوعه!

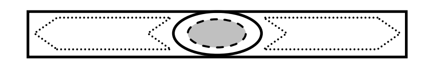
وما أَشدّ حياطة أولئك الأئمة لهذا الدين!

وما أَعْظَمَ قُدْرةَ الله سبحانه في حفظ هذا الدين أن يغيَّر أو يبدَّل أو يضيَّع!.

هذه شروط قبول الرواية في منهج المحدّثين، ناهيك عن عنايتهم بالنُسَخ والكتب بعد ذلك، وشروطهم الدقيقة في روايتها والاعتماد عليها ونقْدها، واعتمادهم في ذلك على السند، أي سندِ روايةِ النسخة عن المؤلف، وفحْص الخطّ والحبر والورق، وهل جاء كلٌّ ذلك على نَسَقٍ واحدٍ؟ أم اختلفتْ بسبب الإلحاقات والإضافات والتغيير والتبديل؟!.

فبالله عليك، يا أخي القارئ، هل في الدنيا تدقيق في النقل، وتثبّتٌ ونزاهة في الرواية والنقد بَلَغَ هذا المبلغ في أيّ دين من الأديان، غير الإسلام، أو في أيّ علمٍ من العلوم في غير ميدان سنّة النبيّ ﷺ وعلومها؟!.

ومن أين لأديان الأرض والبشر أن تُطاوِل دين الله الخالق؟! ومن أين لقدْرة البشر أن تصل إلى قدْرة الخالق وتقْديره وعلْمه وحكْمته؟! ولكن الناس عن هذا غافلون.



أثرُ شروط القبول عند المحدّثين في حفظ السنّة

إن من المسالك المخطئة في دراسة علمٍ من العلوم أن يؤخذ في صورة معلومات، وربما كانت محققةً، ولكن دون النظر إلى مغزاها ومؤدّاها ومقتضاها، فلا يَتوصل من خلالها العالِمُ والمتعلم إلى الغاية منها، ولا يفيد منها عقلُه وقلبه شيئاً، ولا تؤثر في سلوكه تأثيراً حسناً في قليل أو كثير، **وبناء على ذلك قد ترى مَن يَتَعامل مع علوم العقل والقلب والإيمان، وعلوم التزكية والتربية والتهذيب تعاملاً لا يَعْدُو المعرفةَ الباردةَ التي لا تُقْنِع عقلاً، ولا تَزِيد إيماناً!!**.

وليس مردّ هذه الظاهرة إلى أن هذه العلوم ليس لها ذلك الشأن من خاصيتها ووظيفتها؛ كلاّ، بل مردّ الظاهرةِ الخطأِ هذه إلى قصور أو خلل لدى هذا النوع من الناس المشتغل بتلك العلوم، إنه غفلة أو قصور أو خلل في التفكير أو في الإيمان، فأنتج هذا خَللاً آخَرَ في منهج دراسة علوم الإيمان والتزكية والتربية، لقد حوّل هذا المنهجُ وهؤلاء الدارسون نصوصَ الكتاب والسنة في مسلكهم التعليمي إلى علومِ وسائل وآلة، وهي في الواقع علوم المقاصد والغاية والتزكية والهداية!!.

أردتُ من هذه الأسطر الآنفة الذكر التمهيد للحديث عن أثر شروط قبول الرواية عند المحدثين في حفظ السنة، وأردتُ أيضاً التنبيه إلى خطأٍ شائع في مسلكنا في دراسة منهج المحدثين وخصائصه، هو عين الخطأ الذي ذكرته آنفاً، حيث ندرس شروط قبول الرواية في ذلك المنهج النقليّ الفريد، الذي توجه إلى الوحي الإلهيّ بما يليق به من حفظٍ وصيانة وعناية واحترام، ثم لا نتوصل من خلال الدراسة إلى الحقيقة التي تُسْفرُ عنها شروط القبول هذه، وبالتالي لا نتعامل مع تلك

الحقيقة على الرغم من أنها ينبغي أن تكون ثمرة طبيعية للدراسة!.

فما أثرُ شروط قبول الرواية في حفظ حديث رسول الله ﷺ؟ وما مؤدّى هذه الشروط؟.

إن مما يؤسف له أنني لم أقف على دراسة تشير إلى مؤدى هذه الشروط ومعناها، على كثرة ما مررت به من دراسات تُحقّقُ وتُدقّق في منهج المحدثين!.

وقد حان الآن -أيها القارئ الكريم- أن أكشف لك عما لعلّي شنّفتُ أُذنيك لسماعه، أو أشغلت عينيك بالبحث عنه لقراءته، ملخصاً في الأسطر التالية:

إن من أهم ما يجب أن نتوصل إليه من خلال شروط قبول الرواية هو الثقة اليقينية بحفظ حديث رسول الله ﷺ، والعلْم القطعي بأن هذا الدين قد حفظه الله على أيدي المحدثين بأعلى ما يمكن من درجات الثقة والتوثيق.

إن معنى هذه الشروط هو أن هذا الدين قد جاءنا كما أُنزل!.

فقد جاءنا عن طريق النقل المتواتر بضوابطه الدقيقة عند المحدثين، وعن طريق نقل الآحاد التي ثبتت الثقة بها.

لقد جاء هذا الدين عن طريق الأسانيد المتصلة!

بنقل العدول الضابطين!!

و لم يأتنا هذا الدين عن طريق الظنون والخيالات!

ولا عن طريق الأسانيد المنقطعة!

ولا عن طريق الكافرين!

ولا عن طريق الكذابين!

ولا عن طريق المتّهمين بالكذب!

ولا عن طريق الفاسقين!

ولا عن طريق مخرومي المروءة والعدالة!

ولا عن طريق المبتدعين بدعة مكفرة!

ولا عن طريق المجهولين!

ولا عن طريق الصبيان غير المميزين!

ولا عن طريق المجانين!

ولا عن طريق المخلّطين المخبّطين!

ولا عن طريق سيِّئي الحفظ!

ولا عن طريق كثيري الوهم!

ولا عن طريق فاحشي الغلط!

ولا عن طريق المغفلين! حتى ولو كانوا صالحين!

بل ولا عن طريق أخطاء الثقات وأوهامهم!

هذا هو معنى تطبيق المحدِّثين لشروط قبول الحديث عندهم على الروايات عن رسول الله ﷺ!

أرأيت كيف تكون الحقيقة التي نغفل عنها في دراستنا لهذا التخصص الفريد!.

أرأيت كيف الحقيقة التي كان يجب أن تملأ علينا السمع والبصر والفؤاد!.

أرأيت كيف نُقِلتْ إليك أحاديث سيد المرسلين!.

إنه العلم والإيمان اللذان هما ضالة الإنسان.

فما أَسعدَ مَن وقف على الأمر وقدّره حق قدره!!.



دقة منهج المحدثين في الرواية

قال الإمام الشوكاني عن حفظ الله للسنّة بالمحدِّثين:

«**وحماها بحماة صفّدوا–بسلاسل أسانيدهم الصادقة–أعناق الكاذبين، وكفاها بكُفاة كفّوا عنها أَكُفَّ غير المتأهلين من المنتابين المرتابين؛ فَغَدا مَعِينُها الصافي غيرَ مُقَذَّرٍ بالأكدار، وزلالُ عذبِها الشافي غيرَ مكدَّرٍ بالأقذار**»[٢٧].

لم يكن منهج المحدثين مقتصراً على نقل الرواية كيفما كانت، بل هو منهج توجَّهَ إلى نقْل الروايات على وجه الدقة والضبط والإتقان، كما توجَّه إلى نقْد الروايات نقداً علميّاً منضبطاً دقيقاً، ميّز بين الثابت وغير الثابت منها، وشمل نقد السند ونقد المتن معاً.

ولقد أصبح الحكم على الرواية بالصحة وفق منهج المحدثين معناه العلم بأن الرواية ثابتة لا مرية فيها.

ومِن روائع هذا المنهج وخصائصه: أنه تناول بالدراسة كل ما كان ذا صلة بمهمة التثبت من صحة الرواية قريبةٍ أو بعيدةٍ، حتى لقد تناولت دراساتهم النقديةُ:

معنى الرواية ومدى استقامته.

ومدى استقامة أن يكون من أحاديث النبي ﷺ بالنظر إلى ما جاء به النبي ﷺ من نصوص أخرى ثابتة عنه من كتاب أو سنة.

ومدى اتفاق الرواية أو مخالفتها لغيرها من الروايات!.

ومن مسالك دقة التوثيق في منهج المحدثين، ومن مظاهره كذلك: ما شهد به

---

(٢٧) نيل الأوطار، للشوكاني، ٢/١.

منهجهم في توثيق السنة مِنْ شمولٍ أتى على ما يلي:

١- توثيق رجال السنة الأئمة المشتغلين بها ورصْد حياتهم وآرائهم وأقوالهم.

٢- توثيق المنهج الذي قامت عليه الرواية والنقد عندهم.

٣- توثيق روايات السنة.

٤- توثيق مؤلفاتها.

فماذا بقي بعد هذا مِن مجالات النقد اللازمة، لم يتناوله منهجهم بالدراسة والتمحيص والتوثيق؟!.

ومن مظاهر الشمول في منهجهم كذلك ومسالكه: ما تشهد به مؤلفاتهم من أنواع علوم الحديث ومصطلحاته، حتى إن من يستعرض عناوين مباحث علوم الحديث ومصطلحه يوقن بهذا الشمول وهذه الدقة ويعلم يقيناً أنهم قد بحثوا كل شيء.

وانظر في حاشية هذه الصفحة عدداً من عناوين مباحثهم التي يعرضون لها غالباً في مؤلفاتهم عن علوم الحديث، غير مستقصٍ للعناوين كلها، ليقف على الحقيقة من لم يقف عليها[٢٨].

---

(٢٨) مِن العناوين التي تَرِدُ- أو نحوها غالباً- في المؤلفات في علوم الحديث، أنقلها من كتاب "الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث"، لأحمد شاكر، رحمه الله:

«الصحيح. تحقيق أصح الأسانيد.

أول من جمع الصحاح. عدد ما في الصحيحين من الحديث.

الزيادات على الصحيحين. المستخرجات.

مستدرك الحاكم.

=

=

الموطأ. إطلاق اسم الصحيح على الترمذي والنسائي.
مسند الإمام أحمد. الكتب الخمسة وغيرها.
التعليقات التي في الصحيحين. ليس في الصحيحين ضعيف.
هل الحديث الصحيح يوجب العلم اليقيني. الحسن.
الترمذي أصل في معرفة الحديث الحسن. أبو داود من مظان الحديث الحسن.
كتاب المصابيح للبغوي. قول الترمذي "حسن صحيح".
الضعيف. المسند.
المتصل. المرفوع.
الموقوف. المقطوع.
المرسل. المنقطع.
المعضل. المدلس.
الشاذ. المنكر.
الاعتبار والمتابعات والشواهد. الأفراد.
زيادة الثقة. المعلل.
تحقيق الكلام في التعليل. المضطرب.
المدرج. أمثلة المدرج.
الموضوع. كتاب الموضوعات لابن الجوزي.
تحقيق القول في الحديث الموضوع. المقلوب.
رواية الأحاديث الضعيفة. من تقبل روايته ومن لا تقبل.
هل يقبل الجرح والتعديل مبهمين؟. الرواية عن أهل البدع.
التائب من الكذب. تكفير متعمد الكذب في الحديث النبوي.
إذا أنكر الشيخ رواية تلميذه الثقة. من أخذ على التحديث أجرة.
أعلى العبارات في الجرح والتعديل. كيفية سماع الحديث وتحمله وضبطه.
السن التي يصلح فيها الصبي للرواية.

=

=

أنواع الرواية:

السماع.
القراءة على الشيخ.
سماع من ينسخ وقت القراءة.
السماع من المستملي لمن يسمع كلام الشيخ.
الإجازة.
تحقيق القول في الإجازة.
المناولة.
المكاتبة.
الإعلام.
الوصية.
الوجادة.
تحقيق القول في الوجادة.
كتابة الحديث.
تحقيق القول في كتابته.
كيفية كتابته.
صفة رواية الحديث.
رواية الحديث بالمعنى.
اختصار الحديث.
التصحيف والتحريف والنقص.
تداخل ألفاظ الروايات.
فروع فيما ينبغي عند الرواية.
آداب المحدث.
إملاء الحديث وألقاب المحدثين.
آداب طالب الحديث.
الإسناد العالي والنازل.
اختصاص الأمة الإسلامية بالإسناد.
أقسام العلو في الإسناد.
المشهور.
الغريب والعزيز.
غريب ألفاظ الحديث.
المسلسل.
ناسخ الحديث ومنسوخه.
التصحيف والتحريف.
تحقيق القول فيهما.
مختلف الحديث.
تحقيق القول في تعارض الأحاديث.
المزيد في متصل الأسانيد.
الخفي من المراسيل.
الصحابة.
الكتب المؤلفة في تراجم الصحابة.
تحقيق تعريف الصحابي.
طبقات الصحابة.
أكثر الصحابة رواية.
كتاب مسند بقي بن مخلد.
كتاب مسند الإمام أحمد وعدد أحاديثه.
العبادلة من الصحابة.

=

ولم يَكن همُّ المدقِّقين مِنهم مجرد الرواية، وإنما التخير، وبيان حال الراوي الذي يَنقل عنه الرواية؛ روى الإمام مسلم في مقدمة صحيحه: من طريق الشَّعْبِيِّ قَالَ: حَدَّثَنِي الْحَارِثُ الأَعْوَرُ الْهَمْدَانِيُّ وَكَانَ كَذَّاباً.

ومن طريق مُغِيرَةَ قَالَ: سَمِعْتُ الشَّعْبِيَّ يَقُولُ حَدَّثَنِي الْحَارِثُ الأَعْوَرُ، وَهُوَ يَشْهَدُ أَنَّهُ أَحَدُ الْكَاذِبِينَ.

=

أول الصحابة إسلاماً.
آخر الصحابة موتاً.
بم تعرف صحبة الصحابي.
التابعون.
المخضرمون.
رواية الأكابر عن الأصاغر.
رواية الصحابة عن التابعين.
المدبَّج.
الإخوة والأخوات.
رواية الآباء عن الأبناء.
رواية الأبناء عن الآباء.
رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده.
بهز بن حكيم.
السابق واللاحق
من لم يرو عنه إلا راو واحد.
من له أسماء متعددة.
الأسماء المفردة والكنى.
الأسماء والكنى.
من اشتهر بالاسم دون الكنية.
الألقاب.
المؤتلف والمختلف في الأسماء ونحوها.
المتفق والمفترق من الأسماء ونحوها.
نوع يتركب من النوعين قبله.
صنف آخر مما تقدم.
المنسوبون إلى غير آبائهم.
النسب التي على خلاف ظاهرها.
المبهمات من الأسماء.
وفيات الرواة وأعمارهم.
الثقات والضعفاء.
من اختلط آخر عمره.
الطبقات.
الموالي من الرواة والعلماء.
أوطان الرواة وبلدانهم».

ومن طريق حَمْزَةَ الزَّيَّاتِ قَالَ: سَمِعَ مُرَّةُ الْهَمْدَانِيُّ مِنَ الْحَارِثِ شَيْئاً، فَقَالَ لَهُ: اقْعُدْ بِالْبَابِ. قَالَ: فَدَخَلَ مُرَّةُ، وَأَخَذَ سَيْفَهُ، قَالَ: وَأَحَسَّ الْحَارِثُ بِالشَّرِّ؛ فَذَهَبَ.(٢٩).

ولبيانِ جانبٍ مِن دقةِ هذا المنهج في توثيق روايات الحديث عند المحدِّثين أَنقلُ ثلاثة فصولٍ مِن كتابِ الكفاية في علوم الرواية، للخطيب البغدادي، تَكْشفُ عن شيءٍ مِن هذا الجانب.

باب الكلام في الأخبار وتقسيمها:

قال الخطيب البغدادي في شأن تقسيم الخبر إلى متواتر وآحاد:

«الخبر هو ما يصح أن يدخله الصدق أو الكذب، وينقسم قسمين: خبر تواتر، وخبر آحاد.

فأما خبر التواتر، فهو: ما يُخْبِر به القوم الذين يَبْلغ عددهم حدّاً يُعْلَم عند مشاهدتهم بمستقر العادة أن اتفاق الكذب منهم محال، وأن التواطؤ منهم في مقدار الوقت الذي انتشر الخبر عنهم فيه متعذر، وأن ما أخبروا عنه لا يجوز دخول اللبس والشبهة في مثله، وأن أسباب القهر والغلبة والأمور الداعية إلى الكذب منتفية عنهم، فمتى تواتر الخبر عن قومٍ هذه سبيلهم، قُطِع على صدْقه، وأوجب وقوع العِلم ضرورة.

وأما خبر الآحاد فهو ما قَصُرَ عن صفة التواتر، ولم يقطع به العلم وإن روته الجماعة.

---

(٢٩) مسلم، ١/١٩، المقدمة.

والأخبار كلها على ثلاثة أضرب: فضرب منها يُعْلَم صحته، وضرب منها يُعْلَم فساده، وضرب منها لا سبيل إلى العلم بكونه على واحد من الأمرين دون الآخر.

أما الضرب الأول، وهو: ما يعلم صحته، فالطريق إلى معرفته إن لم يتواتر حتى يقع العلم الضروري به؛ أن يكون مما تدل العقول على موجَبِه، كالإخبار عن حدث الأجسام، وإثبات الصانع، وصحة الأعلام التي أظهرها الله عز وجل على أيدي الرسل، ونظائر ذلك، مما أدلةُ العقول تقتضي صحتَهُ.

وقد يُسْتدل أيضاً على صحته بأن يكون خبراً عن أمر اقتضاه نص القرآن أو السنة المتواترة، أو اجتمعت الأمة على تصديقه، أو تلقته الكافة بالقبول وعملت بموجَبِهِ لأجله.

وأما الضرب الثاني، وهو: ما يُعْلم فساده، فالطريق إلى معرفته؛ أن يكون مما تَدْفع العقول صحته بموضوعها، والأدلة المنصوصة فيها؛ نحو الإخبار عن قِدَمِ الأجسام، ونفي الصانع، وما أشبه ذلك، أو يكون مما يدفعه نص القرآن أو السنة المتواترة، أو أجمعت الأمة على رده، أو يكون خبراً عن أمر من أمور الدِّين يَلْزم المكلفين علمُهُ وقطْعُ العذر فيه، فإذا ورد وروداً لا يوجب العلم من حيث الضرورةُ أو الدليل؛ عُلِمَ بطلانه؛ لأن الله تعالى لا يُلْزِم المكلفين علماً بأمرٍ لا يُعْلَم إلا بخبرٍ ينقطع ويبلغ في الضعف إلى حدٍّ لا يُعْلَم صحتُهُ اضطراراً ولا استدلالاً، ولو عَلِمَ الله تعالى أن بعض الأخبار الواردة بالعبادات التي يجب علمها يبلغ إلى هذا الحد لأسقط فرض العلم به عند انقطاع الخبر وبلوغه في الوهْيِ والضعف إلى حالٍ لا يمكن العلم بصحته؛ أو يكون خبراً عن أمر جسيم ونبأ

عظيم مثل خروج أهل إقليم بأسرهم على الإمام، أو حصْر العدو لأهل الموسم عن البيت الحرام؛ فلا يُنْقل نَقْل مثله، بل يَرِد وروداً خاصاً، لا يوجب العلم، فيدل ذلك على فساده؛ لأن العادة جارية بتظاهر الأخبار عما هذه سبيله.

وأما الضرب الثالث: الذي لا يعلم صحته من فساده فإنه يجب الوقف عن القطع بكونه صدقاً أو كذباً، وهذا الضرب لا يدخل إلا فيما يجوز أن يكون، ويجوز ألا يكون، مثل الأخبار التي ينقلها أصحاب الحديث عن رسول الله ﷺ في أحكام الشرع المختلَفِ فيها، وإنما وجب الوقف فيما هذه حاله من الأخبار، لعدم الطريق إلى العلم بكونها صدقاً أو كذباً، فلم يكن القضاء بأحد الأمرين فيها أولى من الآخر، إلا أنه يجب العمل بما تضمنت من الأحكام إذا وجد فيها الشرائط التي نذكرها بعد، إن شاء الله تعالى»[٣٠].

باب في أن السفه يسقط العدالة ويوجبُ ردّ الرواية:

مما اشترطه المحدِّثون لقبول الرواية: عدالة الراوي؛ فردُّوا رواية الرواة بكل سبب موجبٍ سقوط العدالة عندهم، وقد ساق الخطيب البغدادي طَرَفاً مِن أخبارهم الطريفة الرائعة في هذا الباب، وإليك بعض أقوالهم وقصصهم التي ذكرها:

- فقد ساق بسنده إلى أبي داود الطيالسي قال: سمعت شعبة يقول: لم يكن شيء أحب إليّ من أن أرى رجلاً يقدم من مكة فأسأله عن أبي الزبير، حتى قدمت مكة فسمعت منه، فبينا أنا عنده إذ جاء رجل فسأله عن شيء؛ فافترى عليه: فقلت تفتري على رجل مسلم؟ قال: إنه غاظني، قال قلت:

(٣٠) الكفاية في علم الرواية، للخطيب البغدادي، ص٥٠-٥٢.

يغيظك فتفتري عليه!! فآليت ألا أحدث عنه، فكان يقول: في صدري منه أربعمائة... لا والله لا حَدَّثتكم عنه بشيء أبداً.

- وساق بسنده إلى محمد بن إبراهيم الغازي قال: ثنا محمد بن إسماعيل البخاري، وذكر النضر بن مطرف فقال: قال يحيى القطان: سمعته يقول: إن لم أحدثكم فأمي زانية، قال يحيى: تركت حديثه لهذا.
- وأورد بسنده إلى أبي نعيم ابن عدي الحافظ قال: ثنا أبو زيد يحيى بن روح الحراني قال: سألت أبا عبد الرحمن بن بكار بن أبي ميمونة، حراني من الحفاظ، ثقة كان مخلد بن يزيد يسأله عن الحديث من حفظه، لِمَ لم تكتب عن يعلى بن الأشدق؟ قال: خرجت -إليه إلى ربض بن مالك- وربض بن مالك هو خارج من حران- فسألناه عن شيء من الحديث، فقال: كذا وكذا من بغل تفليسي أحمر مدور في كذا وكذا، من حدثكم، ولم يَكُنِ -وتكلم بالفحش- فالتفتُّ إلى صاحبي، فقلت: في الدنيا إنسان يكتب عن هذا؟ فتركناه، وما كتبنا عنه شيئاً.
- وذَكَر بالسند عن عطاف بن خالد: قيل لزيد بن أسلم: عمن يا أبا أسامة؟ قال: ما كنا نجالس السفهاء ولا نتحمل عنهم.
- وقال: أخبرنا محمد بن الحسين بن الفضل القطان، قال: أنا عبد الله بن جعفر بن درستويه قال: ثنا يعقوب بن سفيان قال: ثنا إبراهيم بن المنذر قال: حدثني معن بن عيسى قال: كان مالك بن أنس يقول: لا تأخذ العلم من أربعة، وخذ ممن سِوى ذلك:

١- "لا تأخذ من سفيه معلن بالسفه، وإن كان أروى الناس.

٢- ولا تأخذ من كذاب يكذب في أحاديث الناس، إذا جُرِّبَ ذلك عليه، وإن كان لا يُتَّهم أن يكذب على رسول الله ﷺ.

٣- ولا من صاحب هوى يدعو الناس إلى هواه.

٤- ولا مِن شيخٍ له فضل وعبادة، إذا كان لا يعرف ما يُحَدِّث.

قال إبراهيم بن المنذر: فذكرت هذا الحديث لمطرف بن عبد الله اليساري، مولى زيد بن أسلم، قال: ما أدري ما هذا، ولكن أشهد لسمعت مالك بن أنس يقول: لقد أدركت بهذا البلد، يعني المدينة، مَشْيخةً لهم فضلٌ وصلاحٌ وعبادةٌ يحدِّثون، ما سمعت من واحد منهم حديثاً قط. قيل: ولِمَ يا أبا عبد الله؟ قال: لم يكونوا يعرفون ما يحدِّثون"[٣١].

ومِن صنيع المحدِّثين في التثبت في أخذ حديث رسول الله ﷺ: ردُّهم لحديث الكاذب في غير حديث رسول الله ﷺ، وقد سبق أن ذَكر الخطيب قول مالكٍ في هذا، ثم قال الخطيب في شأنه:

"ويجب أن يقبل حديثه إذا ثبتت توبته.

- فأما الكذب على رسول الله ﷺ بوضع الحديث وادّعاء السماع، فقد ذكر غيرُ واحدٍ مِن أهل العلم أنه يوجب ردَّ الحديث أبداً، وإن تاب فاعله.

حُدِّثتُ عن عبد العزيز بن جعفر الحنبلي قال: ثنا أحمد بن محمد بن هارون الخلال، قال أخبرني موسى بن محمد الوراق قال حدثنا أبو عبد الرحمن عبيدالله بن أحمد الحلبي قال: قال: سألت أحمد بن حنبل عن محدِّثٍ كذَبَ في حديثٍ واحدٍ، ثم تاب ورجع، قال: توبته فيما بينه وبين الله تعالى، ولا

(٣١) الكفاية، للخطيب البغدادي، ص ١٨٧-١٨٩.

يُكْتب حديثه أبداً.

- ... قال أحمد بن يحيى بن أبي العباس الخوارزمي: ثنا ابن قهزاذ قال: سمعت عبد العزيز بن أبي رزمة يقول: قال عبد الله بن المبارك: من عقوبة الكذب أن يرد عليه صدقه.
- ... قال أبو صالح المروزي: قال رافع بن أشرس: كان يقال: "إن من عقوبة الكذاب أن لا يقبل صدقه" قال: وأنا أقول: "ومن عقوبة الفاسق المبتدع أن لا تذكر محاسنه".
- ... قال محمد بن إسماعيل الترمذي: سمعت أبا نعيم الفضل بن دكين قال: [قال] سفيان الثوري: "من كذب في الحديث افتضح"، قال أبو نعيم: وأنا أقول: "من همّ أن يكذب افتضح".
- ... قال بشر بن موسى: قال عبد الله بن الزبير الحميدي: فإن قال قائل: فما الذي لا يقبل به حديث الرجل أبداً؟ قلت: هو أن يحدث عن رجل أنه سمعه ولم يدركه، أو عن رجل أدركه ثم وجد عليه أنه لم يسمع منه، أو بأمرٍ يتبين عليه في ذلك كذبٌ، فلا يجوز حديثه أبداً؛ لما أدرك عليه من الكذب فيما حدث به.

قلت: هذا هو الحُكْم فيه إذا تعمد الكذب وأقر به.

- ... قال حنبل بن إسحاق: ثنا علي -يعني ابن المديني- قال: سمعت يحيى -وهو ابن سعيد القطان- يحدث عن سفيان قال: قال لي الكلبي: قال لي أبو صالح: كل ما حدثتك به كذب، فأما إذا قال: كنت أخطأت فيما رويته ولم أتعمد الكذب، فإن ذلك يُقْبل منه، وتجوز روايته بعد توبته.

- ... سمعت القاضي أبا الطيب طاهر بن عبد الله الطبري يقول: "إذا روى المحدث خبراً ثم رجع عنه وقال: كنت أخطأت فيه وجب قبوله؛ لأن الظاهر من حال العدل الثقة الصدق في خبره، فوجب أن يقبل رجوعه عنه كما تقبل روايته" وإن قال: كنت تعمدت الكذب فيه، فقد ذكر أبو بكر الصيرفي في كتاب الأصول، أنه لا يُعْمل بذلك الخبر، ولا بغيره من روايته".
- قرأت على الحسن بن علي الجوهري عن محمد بن عمران المرزباني، قال: ثنا محمد بن مخلد قال: سمعت جعفر بن أحمد بن سام أبا الفضل -وكان من عقلاء الرجال- يَذْكر عن حسين بن حبان، قال: قلت: ليحيى بن معين: "ما تقول في رجل حدَّث بأحاديث منكرة، فردها عليه أصحاب الحديث إن هو رجع عنها، وقال: ظننتها، فأما إذْ أنكرتموها، ورددتموها عليَّ؛ فقد رجعتُ عنها"؟ فقال: لا يكون صدوقاً أبداً، إنما ذلك الرجل يشتبه له الحديث الشاذ والشيء فيرجع عنه، فأما الأحاديث المنكرة التي لا تشتبه لأحدٍ فلا، فقلت ليحيى: ما يبرئه؟ قال: يُخْرِج كتاباً عتيقاً فيه هذه الأحاديث، فإذا أخرجها في كتابٍ عتيق فهو صدق، فيكون شُبِّهَ له فيها، وأخطأ كما يخطئ الناس؛ فيرجع عنها، قلت: فإن قال: قد ذهب الأصل، وهي في النسخ! قال: لا يقبل ذلك منه، قلت له: فإن قال: هي عندي في نسخة عتيقة وليس أجدها؟ فقال: هو كذاب أبداً؛ حتى يجيء بكتابه العتيق، ثم قال: هذا دِينٌ لا يَحِلُّ فيه غير هذا"[٣٢].

---

(٣٢) الكفاية، للخطيب، ص ١٩٠-١٩٢.

ومِن مقاييس المحدّثين في كشف كذب الكذّاب: استعمال التاريخ، وقد ذَكَر الخطيب هذا فقال:

"ومما يستدل به على كذب المحدِّث في روايته عمن لم يدركه: معرفة تاريخ موت المروي عنه ومولد الراوي.

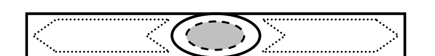
كما أخبرنا محمد بن الحسن بن الفضل، قال: أنا عبد الله بن جعفر، قال: ثنا يعقوب بن سفيان، قال: حدثني العباس بن الوليد بن صبح، قال: حدثني يحيى بن صالح، قال: حدثنا عفير بن معدان الكلاعي، قال: قدم علينا عمر ابن موسى حمص، فاجتمعنا إليه في المسجد، فجعل يقول: حدثنا شيخكم الصالح، فلما أكثر، قلت له: من شيخنا هذا الصالح؟ سمه لنا نعرفه، قال: فقال خالد بن معدان: قلت له: في أي سنة لقيته؟ قال: لقيته سنة ثمان ومئة، قلت: فأين لقيته؟ قال: لقيته في غزاة أرمينية، قال: فقلت له: اتق الله يا شيخ ولا تكذب! مات خالد بن معدان سنة أربع ومائة، وأنت تزعم أنك لقيته بعد موته بأربع سنين! وأزيدك أخرى، إنه لم يغز أرمينية قط! كان يغزو الروم.

- ... حدثنا أبو عمر الخراساني قال: قال سفيان الثوري: لما استعمل الرواة الكذب، استعملنا لهم التاريخ، أو كما قال أبو عمر.
- ... حدثنا أحمد بن أبي الحواري قال: سمعت حفص بن غياث يقول: "إذا اتهمتم الشيخ فحاسبوه بالسنين"، يعني: احسبوا سنّه وسنّ من كتب عنه، وإذا أخبر الراوي عن نفسه بأمر مستحيل؛ سقطت روايته.

مثال ذلك: ما أخبرنا: ...يحيى بن معين قال: ثنا يحيى بن يعلى، قال: قلت لزائدة: ثلاثة لا تحدثُ عنهم، لِمَ لا تروي عنهم؟ قال: ومَنْ هم؟ قلت: ابن أبي

ليلى، وجابر الجعفي، والكلبي، قال: أما ابن أبي ليلى فبيني وبينهم -يعني بَنِي أبي ليلى- حسن، ولست أذكره، وأما جابر الجعفي، فكان والله كذاباً، وأما الكلبي، فمرض مرضة، وقد كنت اختلف إليه فسمعته يقول: مرضت فنسيت ما كنت أحفظه؛ فأتيت آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم؛ فتفلوا في فيَّ، فحفظتُ كل ما نسيت، فقلت: لله عليَّ ألا أروي عنك شيئاً بعد هذا؛ فتركته"[٣٣].

ولعلّ مِن المناسب أن أَنقل فيما يلي طرفاً مِن قِصص المحدِّثين في التثبت في الرواية والسماع والنُّسَخ.



(٣٣) الكفاية في علم الرواية، للخطيب البغدادي، ١٩٢-١٩٤ بتصرف يسير.

مِن قِصص المحدِّثين في التثبت في الرواية والنُّسَخِ والسماع

للمحدِّثين قِصصٌ تروِي تضحياهم في طلب الحديث وفي الرحلة في سبيله، ومِن هذا القِصصُ التالية:

- قصة أبي داود مع يعقوب بن حميد:

قال العُقَيليُّ عن زكريا بن يحيى الحلواني: رأيتُ أبا داود السجستاني قد جعل حديث يعقوب بن كاسب[٣٤] وقاياتٍ على ظُهور[٣٥] كُتُبه، فسألته عنه، فقال: رأينا في "مُسنده" أحاديث أَنْكرناها، فطالبناه بالأصول، فدافَعَنا، ثم أخرجها بَعْدُ، فوجدْنا الأحاديث في الأصول مُغيَّرة بخطٍّ طريٍّ؛ كانت مراسيل، فأسندها وزاد فيها"[٣٦].

- قصة سماع محمد بن طاهر لسنن النسائي ولسنن أبي داود:

"قال ابن نقطة في ترجمة عبدوس بن عبد الله بن محمد بن عبدالله بن عبدوس الهمذاني: روى سنن النسائي عن أبي طاهر الحسين بن علي بن سلمة، تكلم

---

(٣٤) هو: يعقوب بن حميد بن كاسب.

(٣٥) مِن الطريف أنّ عبارة: "وقاياتٍ على ظهور كتبه" قد تحوّلت في كتاب التهذيب، ط. دائرة المعارف العثمانية، ١١/ ٣٨٤، إلى: "وقال مات على ظهور كتبه"! والفرق عظيمٌ بين أن يكون الرجل مات على ظهور كتبه، وبين جعْل حديثه وِقاياتٍ-أي: تجليدة-على ظهور الكتب؛ لِعدم الاعتداد برواياته!.

(٣٦) الضعفاء، للعقيلي، ٤/ ٤٤٦-٤٤٧، تهذيب التهذيب، ٤/٤٤١، ط. الرسالة.

محمد بن طاهر في سماعه، قال محمد بن طاهر في كتاب المنثور:

لما دخلت همذان بعد رجوعي من الري بأولادي، وكنت أسمع وأنا بالري أن كتاب السنن لأبي عبدالرحمن النسائي يرويه عبدوس؛ فقصدته؛ فأخرج إلى الكتاب، والسماع فيه ملحق بخطه سماعاً طرياً؛ فامتنعت من القراءة، وبعد مدة خرجت بابني أبي زرعة إلى الدون إلى الشيخ أبي محمد عبدالرحمن بن حمد الدوني؛ فقرأت له الكتاب عليه، وكان أبوه من أهل الفضل، وهو الذي حمل أبا نصر ابن الكسار من الدينور إلى قريته هذه فسمع أولاده، وأهل القرية منه، وكان سماعه صحيحاً، وكان الشيخ من أورع من رأينا، وأحسنهم عبارة، وكان على مذهب سفيان الثوري(٣٧).

قال ابن طاهر: لما دخل واقد بن الخليل القزويني الري؛ أخذوا في قراءة كتاب السنن لأبي عبدالله محمد بن يزيد بن ماجه؛ فحضرت أول يوم فرأيت الورقة الأولى من الجزء قد قطعت، وكتب عليها بخطه خطّاً طرياً؛ فلم نسمع منه الكتاب إلى أن وصل أبو منصور محمد بن الحسين المقومي؛ فقرأنا عليه الكتاب دفعات، وكان سماعه فيه صحيحاً لا خلاف فيه(٣٨).

قال ابن طاهر في كتاب المنثور: لما كنا بأصبهان كان يذكر أن كتاب السنن لأبي داود عند القاضي أبي منصور بن شكرويه؛ فأردنا القراءة، فذكر أهل بلده أن سماعه ليس بصحيح، فنظرت؛ فإذا به مضطرب، فسألت عن ذلك، فقيل: إن

---

(٣٧) التقييد، ١٧٤/٢، وذكره ابن النجار في ذيل تاريخ بغداد، ٤٢٩/١-٤٣٠، والذهبي في السير في ترجمة عبدوس، ٩٨/١٩.

(٣٨) التقييد، ٥٠/١ ترجمة محمد بن الحسين المقومي، و٢٨٧/٢ ترجمة واقد.

القاضي كان له ابن عم، وكانا جميعاً بالبصرة، وكان القاضي مشتغلاً بالفقه، وإنما سمع اليسير من القاضي أبي عمر، وكان ابن عمه قد سمع الكتاب، وتوفي قديماً، فأخذ نسخة ابن عمه، وكشط اسمه وألحق اسمه إلى أن اتصل النسب بجده، فلم نقرأ عليه، وخرجت من أصبهان إلى البصرة، وقرأته على أبي علي التستري عن أبي عمر، ورحل بعدي أصحابنا من أصبهان، ولم يسمعوا من ابن شكرويه، وكان سماعه من أبي إسحاق، وابن خرشيد قوله وغيره صحيحاً - والله أعلم(٣٩).

- **قصة سماع محمد بن طاهر مع ابن البأآر:**

وَرَد عند المقريزي في ترجمة ابن البأآر إبراهيم بن فضل الأصبهاني، وقال: وذكر أبو عبد الله محمد بن محمود بن النجار عن أبي الفضل محمد بن طاهر المقدسي أنه قال: كان أبوه يحفر الآبار، ورحل في صغره فسمع ببغداد، ورجع منها إلى أصبهان، ولم يتجاوزها، ثم رحل إلى خراسان، وأدرك الأستاذ، ولم يقتصر على ذلك حتى مد يده إلى من لم يره من أهل بلدان شتى لم يدخلها، فأفسد الأول والآخر، ولما دخلت هراة كان بها، فقصدني، وطلب شيئاً من حديث المكيين، والمصريين، فأخرجت له عن مشايخنا بمكة، ومصر، فكتب أحاديث، فبعد أيام بلغني أنه يحدث عن المشايخ الذين حدثته عنهم، فبلغت القصة إلى شيخ البلد أبي إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصاري؛ فسأله عن لقاء هؤلاء الشيوخ بحضرتي، فقال: سمعت مع هذا المقدسي منهم.

---

(٣٩) التقييد، ١/٤٠.

فسألني الشيخ؟ فقلت: ما رأيته قط إلا في هذه البلدة.

فقال له الشيخ: حججت؟.

قال: نعم.

قال: فما علامة عرفات؟.

قال: دخلنا بالليل.

قال: يجوز. فما علامة منى؟.

قال: كنا بها بالليل.

فقال: ثلاثة أيام، وثلاث ليال لم يصبح بكم الصبح؟ لا بارك الله فيك! وأمر بإخراجه من البلد، وقال: هذا دجال من الدجاجلة!.

ثم انكشف أمره بعد ذلك، فلحقه شؤم الكذب، وعقوق المشايخ؛ حتى صار آيةً في الكذب.

وكان يكذب لنفسه، ولغيره بالإجازات، كان له جزء، وإجازات المشايخ، ويلحق فيه في كل وقت أسماء أقوام من أهل الثروة، ويكتب لهم عن أولئك المشايخ أحاديث تقرأ عليهم ويشحذهم بها.

فقال لي أبو محمد السمرقندي: إلى هذا الخبيث إيش تفعل وأنا بأصبهان؟.

قلت: نعم.

قال: كدت أن آخذ الجزء منه ولا أعيده إليه.

فاستعار منه الجزء الذي فيه إجازات المشايخ وخطوطهم، وقد ألحق فيه على الحواشي أسماء عدة من الناس ممن لم يكن له ذكر في صدر الاستدعاء، وحبسه، ولم يرده عليه.

ثم ترك الاشتغال بالحديث، واشتغل بالشحذ، وكشف قناع الوقاحة حتى إنه كان يدخل على أهل الثروة للتعازي، والتهاني، ويروي لهم الأخبـــار، ويفـــوز منهم بالقدر النـــزر، فلا يعتمد على روايته إذا روى، ولا على إجازاتـــه لـــه، ولغيره؛ لكثرة تخليطه فيها، وكذبه.

قال **المقدسي**: سمعت أبا طاهر حمزة بن الحسين الروذوردي يقول: كنا يوماً في حجرة لفضل الصيدلاني، وكان معنا إبراهيم -يعني هذا- فقـــال إبـــراهيم: أتعرفون هذا؟ قلنا: لا.

قال: أنا وضعته الساعة»[٤٠].

- قصة محمد بن طاهر في طلبه للعلم:

قال ابن طاهر: "وأقمت بتِنِّيس مدّة على أبي محمد بن الحـــداد، ونظرائـــه، فضاق بي، فلم يبق معي غير درهم، وكنت أحتاج إلى حبر، وكاغد، فتـــرددت في صرفه في الحبر، أو الكاغد، أو الخبز، ومضى على هذا ثلاثة أيام لم أطعـــم فيها، فلما كان بكرة اليوم الرابع، قلت في نفسي: لو كان لي اليوم كاغـــد، لم يمكنني أن أكتب من الجوع، فجعلت الدرهم في فمي، وخرجت لأشري خبزاً؛ فبلعته، ووقع علي الضحك، فلقيني صديق، وأنا أضحك، فقال: ما أضحكك؟ قلت: خير، فألح علي، وأبيت أن أخبره، فحلف بالطلاق لتصدقني، فأخبرتـــه، فأدخلني منـــزله، وتكلف أطعمةً...

فلما خرجنا لصلاة الظهر، اجتمع به بعض وكلاء عامل تنِّيس ابن قادوس،

(٤٠) المقفَّى الكبير، للمقريزي، ١/٢٥٤-٢٥٥.

فسأله عني، فقال: هو هذا، قال: إن صاحبي منذ شهر أمر بي أن أوصل إليه كل يوم عشرة دراهم، قيمتها ربع دينار، وسهوت عنه، فأخذ منه ثلاث مئة، وجاء بها"[٤١].

- قصةٌ أُخرى لمحمد بن طاهر:

وقد حصلت له قصة أخرى ببغداد في رحلته الثانية من الشام إليها حيث إنه كان جائعاً منذ ستة أيام حتى جاء الشيخ أبو علي المقدسي، ووضع ديناراً في مكان، وانصرف، فأخذه ووضعه في وسط مجلدة، ونسي، وراح إلى السوق ليشتري طعاماً ففتش جيبه و لم يجد، فضاق صدره حتى نام فرأى في المنام أنه في وسط المجلدة فوجده واشترى طعامه[٤٢].

قال ابن طاهر في ترجمة عبيد الله بن عبد الكريم: سمع يحيى بن بكير في الدعاء، روى عنه مسلم في كتابه هذا الحديث أخبرنا أبو عمرو عبدالوهاب، أخبرنا أبي أنا محمد بن الحسين القطان أخبرنا أبو زرعة الرازي أخبرنا يحيى ابن عبد الله بن بكير حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن عن موسى بن عقبة عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال: كان من دعاء النبي ﷺ: (اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك وتحوّل عافيتك وفُجَاءة نقمتك وجميع سخطك)، أخرجه مسلم في كتابه عن أبي زرعة الرازي الحافظ، وهو حديث عزيز، كان أبو بكر الخطيب الحافظ يفيده الناس من الفقيه أبي الفتح سليم بن أيوب الرازي في الحج، ورواه لهم، و لم نزل نسمعه نازلاً حتى بلغني، وأنا بطوس أنه عند أبي

(٤١) السير: ٣٦٧/١٩.

(٤٢) تاريخ الإسلام، في حوادث ووفيات سنة ٥٠١-٥٢٠، ص١٧٨-١٧٩.

عمرو عبد الوهاب فرحلت إلى أصبهان لأجله[٤٣]، وحكى قصة رحلته لطلب هذا الحديث فقال: "رحلت من طوس إلى أصبهان؛ لأجل حديث أبي زرعة الرازي، الذي أخرجه مسلم عنه، ذاكرني به بعض الرحالة بالليل، فلما أصبحت، سرت إلى أصبهان، و لم أحلل عني حتى دخلت على الشيخ أبي عمرو، فقرأته عليه، عن أبيه، عن القطان، عن أبي زرعة، ودفع إليّ ثلاثة أرغفة وكمثراتين، فما كان لي قوتٌ تلك الليلة غيره، ثم لزمته إلى أن حصَّلت ما أريد، ثم خرجت إلى بغداد، فلما عدت، كان قد توفي"[٤٤].

وقال في ترجمة مسدد بن مسرهد: أخبرنا أبو الفضل عمرو بن عبيد الله المقري ببغداد، أنا أبو الحسن علي بن محمد المعدل، أنا أبو عمرو الدقاق، أنا محمد بن أحمد بن المهدي، أنا أحمد بن يونس بن سنان الرقي، قال: قدمت العراق في طلب العلم، قال: فسرت إلى البصرة، ثم سرت إلى بغداد، ثم سرت إلى أبي نعيم إلى الكوفة، قال: فقال لي أبو نعيم: ممن أنت؟ فقلت: من أهل الرقة، قال لي: وفيم قدمت؟ قلت: قدمت إلى العراق في طلب العلم، فقال لي: وإلى أين سرت؟ قلت: إلى البصرة، قال: فمن محدث البصرة؟ قال: قلت له: مسدد بن مسرهد بن مسربل من مغربل بن أربد الأسدي، قال: فقال لي: لو كانت في هذه النسبة: "بسم الله الرحمن الرحيم" كانت رقية العقرب.

قال: فقال لي: وأين سرت؟ قال: فقلت له: إلى بغداد، قال: فمن محدث بغداد؟ قال: قلت له: سعدويه، قال: فمن قاضيهم؟ قلت: شعبويه، قال: فمن

(٤٣) الجمع بين رجال الصحيحين، ٣٠٧/١.

(٤٤) سير أعلام النبلاء، ٣٦٦/١٩.

قاصّهم؟ قلت: شيغويه، قال: ويحك، ويمطرون!![٤٥].

وهذه الأسئلة مِن الشيخ اختبارٌ منه للمسئول، وقوله أخيراً: "ويحك! ويُمْطرون"! اعتراضٌ منه على جوابه.

وقد عُني المحدِّثون بنقد مرويات ونُسَخ الرواة، وهذا علي بن أحمد بن يوسف القرشي أبو الحسن الهكاري الصوفي: قال عنه ابن النجار: "... وفي حديثه متون موضوعة، مركبة على أسانيد صحيحة..."[٤٦].

وقال عبد الله بن أحمد: «**سمعت أبي يُثني على يحيى بن يحيى، ويقول: ما أخرجتْ خراسان مثله، كنّا نسمّيه الشكّاك، من كثرة ما كان يَشكّ في الحديث، يعني أنه كان كلما توقّف في كلمة أبطلَ سماعه لذلك الحديث، ولم يَرْوه. ومناقبه جمّة**»!![٤٧].



(٤٥) الجمع بين رجال الصحيحين، ٥٢٣/٢.

(٤٦) ذيل تاريخ بغداد، ١٧٣/٣.

(٤٧) تذكرة الحفاظ، ٤١٦/٢.

أهمية منهج المحدثين والحاجة إليه

إن الحاجة إلى منهج المحدثين في تلقي الروايات ونقدها حاجة لا يسدها شيء آخر غير منهجهم!

وإن الحاجة قائمة إلى هذا المنهج ليست من أجل السنة فحسب، بل من أجل علم الرواية في شتى المجالات، فكل علمٍ قائم على الرواية، أو كل الروايات الواردة في أي علم من علوم الشريعة فإنه مفتقرٌ إلى قوانين الرواية عند المحدثين لتمييز ما يصحّ روايةً وما لا يصح.

وبهذا يتضح أن علم الفقه الذي يبحث في تقرير أَحكام الشرع لا يقوم إلا على أساس أَحكام منهج المحدثين في تمييز صحيح الروايات من سقيمها، وإلا تحوّل الفقه في بعض الأحيان إلى ما يُشْبه بناء الأحكام على الأوهام، وذلك حينما يستنبط الفقيه الأحكام الشرعية من روايات عن النبي ﷺ لا يدري أثابتة هي عنه أم غير ثابتة!!.

وقُلْ مثل ذلك بالنسبة لعلم العقيدة والتوحيد.

وقُلْ مثل ذلك بالنسبة لتفسير القرآن الكريم.

وقُلْ مثل ذلك بالنسبة لأصول الفقه.

وهكذا يتضح لك بأن علوم الشريعة كلها مفتقرة في جانب الرواية إلى المنهج النقدي عند المحدِّثين.

وهذه الحقيقة لا تتناسب أو لا يتناسب معها واقع المتخصصين في هذه المجالات اليوم، إذْ نرى كثيراً منهم لا يدري ما علوم الحديث وما مصطلحه!.

ولا يدري كيف يتثبت من صحة الرواية عن رسوله ﷺ؟!.



معنى الحكم على روايةِ الحديث بالصحة

إن المسلك الخطأ الذي أشرت إليه في أثناء الحديث عن شـــروط المحـــدثين لقبول الرواية من التعامل البارد مع حقائق العلم، وعدم توجيههـــا إلى العقـــل والقلب والسلوك، ومن الاتجاهِ -بدلاً من هذا- إلى تلقّي هذه العلـــوم مجـــرّدَ معلومة، إن هذا المسلك الخطأ يتكرر هنا فيما يتعلق بالوقوف على الأحاديـــث الصحيحة، أو الوقوف على الحكم بصحة حديثٍ ما.

إن المسلك الخطأ ذاته يتكرر لدى كثير منّا هنا، وذلك حينما:

١- لا يتعامل مع مدلول هذه الحقيقة، وإنما يأخذها معلومة للحفظ فقط.

٢- لا يستشعر معنى صحة الحديث ولا معنى الحكم بأنه صحيح.

٣ - لا يتنبّه لمقتضيات صحة الحديث كلها فيأخذ بها.

وهذه غفلة شديدة منّا أوقعنا فيها تطاولُ العهد بنا عن زمنِ النبوّة، وأنـــوارِ الإيمان الحيّ والعِلْم النافع.

فما معنى صحة الحديث؟ وما معنى الحكم بصحة الحديث أو ثبوته، الـــذي يجب علينا أن نقف عنده ونتعامل معه؟.

حقاً إن علماء الحديث يَبْلغون بك بوساطة سند الحديث الصحيح إلى مجلس النبوّة؛ فكأنما تتلقى الحديث من لفْظ النبي ﷺ مباشرة!!.

أَي أَهم يَنْقلونك إلى مجلس النبيّ ﷺ، كما قيل، وذلك عن طريق صحة سند الحديث وفق منهج المحدثين!.

فإذا صح لك الحديث عن رسول الله ﷺ فعليك أن تستشعر في نفسك هذا المعنى!.

تصوّرْ أنك في مجلس رسول الله ﷺ!

تصوّرْ أنك أمام رسول الله ﷺ!

تصوّرْ أنك سمعتَ الحديث من رسول الله ﷺ!

تصوّرْ أنه وَجّه إليك الحديث، وعَنَاك به وخاطبك! فما أنت صانعٌ، إِذَنْ؟!

وما موقفك من حديث رسول رب العالمين؟!

إذا صح لك الحديث عن رسول الله ﷺ فعليك أن تعلم أن ذلك من أعظم حجج الله عليك، فعليك أن تستشعر النعمة، وتقدّرها حق قدرها، وتشكر المنعم سبحانه وتعالى!.

و مما زادني شرفاً وتيهاً * وكدتُ بأخمصي أطأَ الثريا

دخولي تحت قولك ياعبادي * وأن صيّرتَ أحمدَ لي نبيّا

إذا صح لك الحديث عن رسول الله ﷺ فاعلم أنه وحْيُ الله عز وجلّ إلى رسوله، وأن الرسول ﷺ لا ينطق عن الهوى، وإنما هو وحْيُ الله يُبلِّغُهُ إلى عباده!

قلتُ مرّةً لأخٍ حالقٍ لحيته: أريد أن أسألك سؤالاً صريحاً، وأرجو أن تجيبني صريحاً.

فقال: تفضّل.

فقلت له: لماذا تحلق لحيتك؟.

فلم يُحْر جواباً.

فقلت له: إِذَنْ، أُقسّط عليك السؤال.

فهل تحلق لحيتك باختيارك؛ فأنت الذي تذهب إلى الحلاق، أم هو يَقْبض عليك ويحلق لحيتك؟.

فضحك وقال: لا، أنا أذهب إليه باختياري.

فقلت له: عندما تذهب إليه مختاراً ما نهاك عنه الرسول ﷺ هل في نفسك عندئذ أن هذا الذي تفعله أفضلُ مما أَمرك به النبي ﷺ؟.

فلم يُحْرِ جواباً.

فقلت له: إن كان هذا هو المعنى الذي يقوم في نفسك فهي والله قضية خطيرة!

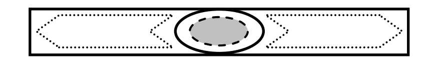
وقلت له: لو كنتَ عند النبي ﷺ فقال لك: يا فلان لا تحلق لحيتك. فهل تحلقها؟.

فقال: لا والله لا أحلقها.

فقلت له: إِذَنْ، واللهِ، لقد قال لك رسول الله ﷺ ذلك؛ لأن الأحاديث عنه قد صحّتْ لك بذلك.

وهكذا ينبغي لنا أن يكون هذا هو الموقف من الحديث الصحيح في كل أمر من الأمور، وهكذا ينبغي أن يكون موقف كل مسلم من حديث رسول الله ﷺ.

وليس حديثه ﷺ إلا ما ثبت عنه بأيّ درجة من درجات الثبوت، سواء كان متواتراً أم آحاداً، في أي موضوع في العقيدة أو في الشريعة!!



مظاهر توثيق السنة وأدلته

توطئــــة:

يقودنا موضوع توثيق السنة إلى النقاط التالية:

- توثيق السنة هو توثيق الدين، والحديث عن توثيق السنة حديث عن توثيق الدين كله؛ لأن السنة شطْرُ الدين الأساس الذي لا يتمّ إلا به..
- وقد جاءت الأدلة القرآنية القاطعة بتوثيق نصوص الوحْي: كتاباً وسنّةً.
- وجاءت الأدلة العقلية وشواهد الوجود بأن هذا الدين حقٌّ، وأن نصوصه نصوصٌ مقدّسة محفوظة!.
- ولو أردنا أن نجمع شهادة الشهود على أن هذا الدين حقٌ، كتاباً وسنّةً، لوجدنا اليقين والحق المبين، الذي ليس بعده إلا الضلال؛ لأن الشهود على هذه الحقيقة هم:

١- الله رب العالمين. ٢- محمد رسول الله ﷺ.

٣- الملائكة. ٤- أولو العلم.

٥- العقل. ٦- الفطرة.

٧- آيات الله المتجددة في الآفاق وفي الأنفس.

٨- شهادة التاريخ.

٩- شهادة واقعِ الوجود.

١٠- نقْلُ الكتابة والمشافهة لروايات الحديث، وتسجيلُ القلم وتسجيل الذاكرة معاً!!.

فأيّ شهادة أعظم من هذه الشهادة؟!.

أيها القارئ العزيز: إن وَحْي الله تعالى -كتابَهُ وسنة نبيه محمد ﷺ- بسموّه وصفاته وحفْظ الله له منــزّه عن التعارض والاختلاف، ومنــزّه عن التغـيير والتبديل والضياع، فهو محفوظ بحفظ الله له.

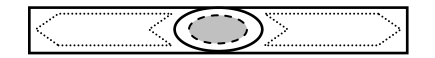
ولكنّ هذا الوحي الإلهيّ قد أثار حَوْلَهُ أعداءُ الله من المستشرقين وسـواهم الشكوك والشبهات، وقد استهدفوا -بطرق مباشرة وطـرق غـير مباشـرة- موضوع توثيقه أكثر مِن سواه!

وهيهات أن تؤثّر تلك الشكوك والشبهات في نصوص الـوحي الإلهـيّ!، وكيف تؤثر فيه تشكيكاتُ الكافرين، وحافظُهُ رب العالمين؟!

إنّ مَثَلَ تلك الشبهات حول القرآن الكريم والحديث الشريف كمثل نبـاح الكلاب للمُزْن في السماء؛ فهل يُغيّرُ نباحها شيئاً من صفاء المـزن وطهارتـه وسموّه؟! كلاّ، كلاّ!

ولكنّ ذلك النباح وإن كان لا يغير من الحق شيئاً إلا أنه يُؤذي عبـاد الله، وقد يُزْعجهم عن الحق، وقد يُضل بعضهم عنه!! ومِن هنا كانت الحاجـة إلى مقاومة تلك الأصوات المُنْكرةِ المُنْكَرَة!

ولكنّا في حاجة في بداية الأمر إلى عرْض الحق واضحاً صافياً نقياً، قبْـل أن نتوجَّهَ إلى تفنيد الشبهات المثارة حوله، وذلك كي لا يَشْغلنا الباطل عن الحق، والتخرّصاتُ والظنونُ والأوهامُ عن اليقين الذي لا مرْية فيه.



استعراضٌ لأدلة توثيق السنة النبوية

نستعرض، فيما يلي أدلة توثيق السنّة النبوية ومظاهر هذا التوثيق:

إن أهم مظاهر توثيق السنة وأدلته ما يأتي:

أولاً: شهادة الله تعالى:

إن أوّل الشهادات، وأَولاها هي: شهادة الله عز وجل بأن هذا الدين حقٌّ، وكفى بالله شهيداً! وقد شهد الله بهذا في مواضع من كتابه العزيز، القرآن الكريم، ومن ذلك: قوله سبحانه: ﴿**شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائماً بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(١٨)إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ(١٩)**﴾[٤٨].

وشَهِدَ أن محمداً عبده ورسوله، ومن ذلك: قوله تعالى مخاطباً رسوله ﷺ: ﴿**قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ...**﴾[٤٩].

نعمْ إنه ليس شيءٌ أكبر شهادة من الله تعالى، وكفى به شهيداً على الحق في هذه القضية وفي كل شيء.

ولا أوثقَ ولا أَدقَّ ولا أَبلغَ من هذا الكلام للتعبير عن هذه الحقيقة

(٤٨) ١٨-١٩: آل عمران: ٣.

(٤٩) ١٩: الأنعام: ٦.

والتدليل عليها!.

و في قوله تعالى: ﴿**ومَنْ بَلَغ**﴾ من الإعجاز في التعبير عن عالمية هذا الدين ما يأسر العقول ويَبْهر الألباب!.

وأخبر الله عباده بأخباره الصادقة المتعددة، مثل قوله تعالى: ﴿**وَمَا يَنْطِقُ عَـــن الْهَوَى(٣) إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى(٤)**﴾[٥٠]، وقوله: ﴿**مُحَمَّدٌ رَسُـــولُ اللَّـــهِ**﴾[٥١]، وقوله: ﴿**وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا**﴾[٥٢].

ومن أصدق من الله قيلاً؟! ومن أصدق من الله حديثاً؟!. فمرحباً بـــشهادة ربنا، وليخنس المتكبرون على شهادة الله رب العالمين!!.

ثانياً: تكفُّلُ الله عز وجل بحفْظ وَحْيِه:

من مظاهر توثيق السنّة وأدلته كذلك: تكفُّلُ الله تعالى بحفظ وحْيِه، وأنه لن يُغَيَّرَ ولن يُبَدَّلَ، وذلك في آيات كثيرة، إضافة إلى شهادته سبحانه وإخباره بأن الرسول رسوله والوحيَ وحْيُهُ.

لقد قرر سبحانه بأن القرآن محفوظ، وأن كل ما تعلّق بالقرآن، وكلَّ مَـــنْ تعلّق به فهو محفوظ.

وإليك تقرير هذا المعنى من كتاب الله تعالى:

قال الله تعالى: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾[٥٣].

---

(٥٠) ٣-٤: النجم: ٥٣.

(٥١) ٢٩: الفتح: ٤٨.

(٥٢) ٧٩: النساء: ٤، وقد ورد في آيات متعددة وصْفُ الرسول ﷺ بأن الله أرسله.

(٥٣) ٩: الحِجْر: ١٥.

هذا إخبارٌ من الله تعالى أنه هو الذي نزّل هذا الكتابَ وهذا الوحيَ على رسوله ﷺ، وإخبارٌ وتكفلٌ منه أنه حافظٌ له، وكفى بإنزاله إنزالاً وكفى بحفظه حفظاً!!

وإن مما يَلْفت النظر ويأسرُ اللُّبَّ: أن الله سبحانه، وهو الله جَلَّ في علاه، قد أكد أنه هو الذي نزّل الذكر، بأكثر من مؤكِّد في أسلوب هذا البيان؛ فانظر إلى: التأكيد بـ"إنّ" المؤكِّدة في قوله: "إنَّا"، والتأكيد بتقديم ضمير التعظيم العائد إليه عز وجل، ضمير الفصل، في قوله: "نحن نزلنا"!!

وإن مما يَلْفت النظرَ ويأسرُ اللُّبَّ كذلك: أن الله - وهو الله جَلَّ في علاه- قد أكد الخبر والوعد بحفظ كتابه بعدّة مؤكِّدات، هي:

- التأكيد بـ"إنّ" المؤكِّدة في قوله: "إنا".
- والتأكيد بتقديم ضمير التعظيم العائد إليه عز وجل، ضمير الفصل، في قوله: "نحن نزلنا"!!
- والتأكيد بالتقديم في قوله: (له).
- والتأكيد باللام المزحلقة في قوله: (لحافظون).
- والتعبير باسم الفاعل (لحافظون)؛ ليفيد الحال والاستقبال!.

ومما يستوقف عقول العقلاء المتدبرين للنص المبين، أنه لم يُقَيِّدْ الحفظ بنوعٍ من أنواعه وإنما قال "لحافظون " ليشمل كل أنواع الحفظ:

حفْظ السطور وحفظ الصدور.

حفْظ الألفاظ وحفظ المعاني.

حفْظ التلاوة وحفظ التطبيق والعمل به.

حفْظ القرآن وحفْظ بيانه، وهو السنة المطهرة.

حفْظ القرآن وحفْظ ما يقتضي حفْظُ القرآن حفْظَهُ[٥٤]، ويدخل في هذا:

حفْظ لغة القرآن.

وحفْظ أُمّة القرآن.

وحفْظ المتمسكين بالقرآن!!

فإذا أردنا أن يحفظنا الله فلْنتمسك بالقرآن المحفوظ، وكفى بحفظ الله حفظاً!! اللهم وفقنا لذلك بمنّك وفضلك يا أكرم الأكرمين!!

إن الله قد تكفّل بحفظ كتابه.

وإنّ وعْد الله حق.

ولذلك فإن على المرء أن يستشعر هذا المعنى.

وأن يبتهج بلطف الله به وإكرامه له بحفظه كتابه له من كل تغيير أو تبديل.

وإن المتأمل، بقلب حاضر وعقل صحيح، لِوَاقع حفْظ القرآن منذ أنزله الله إلى اليوم ليذهل ويُشْده من دِقّة حفظ الله له بصورةٍ لا يمكن أن يكون وراءها جُهْد البشر فقط، ولا يمكن أن يكون وراءها إلا الإعجاز الإلهيّ الذي به تؤدِّي الأسباب أَثَرَها، وبه تَفْقِدُ الأسباب أَثَرَها إذا أراد الله.

---

(٥٤) قال الشيخ عبدالرحمن المعلمي في "التنكيل.."١/٤٨، متحدِّثاً عن قوله سبحانه: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾: "والذكر يتناول السنة بمعناه، إن لم يتناولها بلفظه، بل يتناول العربية وكل ما يتوقف عليه معرفة الحق، فإن المقصود من حفظ القرآن أن تبقى الحجة قائمة والهداية دائمة إلى يوم القيامة لأن محمداً صلى الله عليه وآله وسلم خاتم الأنبياء، وشريعته خاتمة الشرائع، والله عز وجل إنما خلق الخلق لعبادته فلا يقطع عنهم طريق معرفتها، وانقطاع ذلك في هذه الحياة الدنيا انقطاع لعلة بقائهم فيها ". وقد كتبتُ هذه الفكرة حول دلالة الآية تجاوباً مع رأيه هذا، رحمه الله.

وإن وعْد الله بحفظ كتابه الكريم لا يُعفي عباده من القيام بواجبهم الشرعي تجاه حفظ كتابه والدعوة إليه والدفاع عنه، ذلك أن تكفّله سبحانه بحفظ القرآن أمرٌ قدريٌّ كونيٌّ، وأما واجب عبادِه تجاه حفظ كتابه والدفاع عنه والدعوة إليه فواجب شرعيّ، ولا تعارض بينهما، بل إن مما يتجلّى فيه حفظ الله للكتاب الكريم جهود عباده المؤمنين!!

هكذا اقتضت حكمة الله تعالى. لكنَّ الجُهْد البشريّ ليس شرطاً يتوقف عليه الحفظ الإلهي للكتاب.

ولقد لَفَتَ الله الأنظار إلى التأكيد بأنَّ تَنَزُّل القرآن، منذ أوّل الأمر، وحفْظه ليس عملاً بشرياً إطلاقاً، وإن كنتَ متطلعاً إلى بعض الآيات في هذا المعنى فاستمعْ:

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ(١٩١)وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ(١٩٢)نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ(١٩٣)عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِن الْمُنذِرِينَ(١٩٤)بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ(١٩٥)وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ(١٩٦)أَوَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ(١٩٧)وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الأَعْجَمِينَ(١٩٨)فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ(١٩٩)كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ(٢٠٠) لا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الأَلِيمَ(٢٠١)﴾[٥٥].

وسبحان الله ما أَعجبَ أمرَ هذا القرآن!!

إن الله تعالى يُقرّر في هذه الآيات حقيقةَ تنـــزيل القرآن ابتداءً في صورةٍ بيانيّة مُحْكَمة تأخذ بالألباب، وفي ضِمْنِ هذا البيان تفنيدٌ دقيقٌ لمطاعن الطاعنين في القرآن الكريم الزائفة. ومما يتجلّى فيه هذا البيان وهذا التفنيد ما يأتي:

---

(٥٥) ١٩١-٢٠١: الشعراء: ٢٦.

١- التأكيد على صفات الله وجلاله سبحانه بما يقْتضيه المقام: ﴿**وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ**﴾.

٢- التأكيد على أن الله سبحانه هو الذي أنزل هذا القرآن: ﴿**وَإِنَّه لتنــزيل رَبِّ العَالمــين**﴾.

٣- بيانُ سَنَدِ القرآن: ﴿**وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ(١٩٢)نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ(١٩٣)عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِن الْمُنذِرِينَ...**﴾.

فسَنَدُه هو: محمد ﷺ، رسول الله ومصطفاه، عن جبريل، أمين الله على وَحْيِه من ملائكته، عن الله رب العالمين!!

٤ - بيان أن تَنَزُّلَ القرآن وحفظه -منذ البداية- ليس عملاً بشرياً، بل هو صُنْعٌ إلهيٌّ، فقد كان تَلقِّي النبي ﷺ له ليس عن طريق الحفظ والجهد البشري، وإنما أنزله الله على قلب محمد ﷺ بنقْل جبريل الروح الأمين، إلى قلب النبيّ مباشرة.

٥- بيان صفة من أهم صفات القرآن بعد هذا، وهي أنه عربيّ مبين: ﴿**بلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ...**﴾ إنه وضوح وثقةٌ في نزول القرآن وسنده، ووضوح وثقةٌ في لغته وبيانه ومعانيه ومقاصده!!

٦- الاستدلال -بعد هذا كله- على توثيق القرآن بأدلة أخرى، أو نوع آخــر من الاستدلال، وهو استشهاد التاريخ الثابت، وهو ما أودعه الله لدى مَــن سَبَقَ من علْمٍ بهذا القرآن وهذا الدين وهذا الرسول أنه حقٌ، إنه عِلْمُ علماء بني إسرائيل به بأنه حقٌ!!

وقد سلك بعض علماء بني إسرائيل، منذ بعثة الــنبي ﷺ، مــسلكاً مخطئــاً وخاطئاً تجاه هذا الدين وهذا القرآن، حيث أنكروا الحقيقة الــتي لا مرْيــة

فيها، وجحدوا ما أَودعهم الله إياه من العلم برسالة الرسول ﷺ أنها حــقٌ، وتنكّروا لما كانوا يُبَشِّرون به قبل البعثة مِن ترقّبِهم لدينٍ جديد يُرْسِلُ الله به رسولاً من رسله، فلمّا جاء الرسول ليس منهم، وقفوا هذا الموقف، فخالفوا بذلك أسلافهم من العلماء الربانيين، وخالفوا ما ثبت لديهم من دينهم بهذا الخصوص، وناقضوا بعد البعثة المحمدية أنفُسهم قبْلها، فويلٌ للظالمين!

وقد كان هذا العلم الصحيح بالوعد الإلهيّ ببعثة محمد ﷺ، علماً متوارَثاً بينهم، ومُثبتَاً في كُتبهم، ولذلك ذَكَرَ الله تعالى أن هذا مِن الشهادات الحق الشاهدة بأن ما أرسل الله به محمداً حقٌ، وأن ما لدى بني إسرائيل من ذلك شهادة من الشهادات، فأدى الشهادة لله منهم مَن أدّاها، وجحدها مَن جحدها منهم، وتوارَثَ اليوم منهم مهمةَ الجحود هذه مَن لم يتأهل لرحمة الله ورضوانه. وإلى الله المصير، وعند الله الحساب!

٧- الإشارة إلى ما يُفنّد شُبَهَ المبطلين حول هذا القرآن وعدم إيمانهم به، بما يُشْبه المقابلة بما سبق ذكره في الآيات، فمنها قول الله تعالى: ﴿**كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ(٢٠٠) لا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الأَلِيمَ(٢٠١)**﴾.

إنه صُنْعٌ إلهيّ لإضلالهم بسبب ظلمهم وعنادهم وإعراضهم عن طريق هداية الله، وهذا يقابل قوله: ﴿**نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ(١٩٣)عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِن الْمُنذِرِينَ(١٩٤)**﴾.

والقادر على إنزال القرآن على قلب محمد عليه الصلاة والسلام وحفظه قادرٌ على إضلال المجرمين عنه وهو استدلال فريد عجيب!!

فلا تغرنّكم شبهات أصحاب الشبهات حول هذا الكتــاب ولايخــدعنّكم إعراضهم عنه!!

ثالثاً: اعتماد المحدثين في النقل على السند:

من مظاهر توثيق السنّة وأدلته كذلك: مبدأ الاعتماد على السند في النقل عند المحدِّثين، وعدم الالتفات إلى الروايات التي تُنْقل بدون إسناد، وتأكيدهم على هذا المبدأ الفريد وأن الإسناد من الدين، وتَخَصُّصُ طائفة من علماء الأمّة بعلم الرواية بالإسناد، وانقطاعهم إلى القيام بهذه المهمة، فلَزِموا محابرهم ودفاترهم للحفاظ على نقْل الروايات بأسانيدها، حتى قال الإمام الشافعيّ: «لولا المحابر لخطبتِ الزنادقة على المنابر»[٥٦].

أي لولا محابر المحدّثين الذين قاموا بهذه الوظيفة.

وقالوا: «إن هذا العلم دِينٌ، فانظروا عن مَنْ تأخذون دينكم»[٥٧].

وقال عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعيّ: «ما ذهاب العلم إلا ذهاب الإسناد»[٥٨].

وقال سفيان الثوريّ: «الإسناد سلاح المؤمن، فإذا لم يكن معه سلاح فبأيّ شيء يُقاتِل؟!»[٥٩].

وقال عبد الله بن المبارك: «الإسناد من الدين، ولولا الإسناد لقال مَن شاء ما شاء، ولكن إذا قيل له: مَن حدَّثك؟ بقي»[٦٠] أي بقي ساكتاً منقطِعاً عن الحجة؛ لمخالفته المحجّة.

---

(٥٦) سير أعلام النبلاء: ٧٠/١٠.

(٥٧) صحيح مسلم، المقدمة، ١٤/١.

(٥٨) "الإسناد من الدين"، عبد الفتاح أبو غدة، ٢٠، وقد أسنده ابن عبد البر في التمهيد، ٥٧/١.

(٥٩) المصدر نفسه، ١٩، وقد أسنده السمعاني في أدب الإملاء والاستملاء، ص٨.

(٦٠) المصدر نفسه، ١٦- ١٧، وهي في "تاريخ بغداد"، ١٦٦/٦، وغيره.

وقال محمد بن إدريس أبو حاتم الرازي: «لم يكن في أُمةٍ من الأمم منذ خَلَق الله آدم أُمةٌ يحفظون آثار نبيهم وأنساب سلفهم مثل هذه الأُمة، ولكن إذا قيل له: مَن حدَّثك؟ بقيَ»(٦١).

ومَن عَلِم أهمية السند في نقْل الروايات لم يَخْفَ عليه الإعجاز الإلهيّ في توفيقه سبحانه لهذه الأمة للأخذ بهذه الخصيصة التي لم يُشاركها فيها غيرها، لأنه سبحانه اختص هذا الدين بالحفظ على سائر الأديان.

وقد عَرَضَ الإمام ابن حزم -رحمه الله تعالى- لطريقة نقْلِ الدين عند المسلمين، وذَكَرَ كلاماً جميلاً(٦٢)، خلاصته(٦٣): «نقْلُ الثقة عن الثقة حتى يَبلغَ به النبيَّ ﷺ، مع الاتصال، يُخبِر كل واحدٍ منهم باسم الذي أَخبَره ونسبه، وكلهم معروفُ الحال والعين والعدالة والزمان والمكان: خَصَّ الله به المسلمين دون سائر أهل الملل كلها، وأبقاهُ عندهم غضاً جديداً على قديم الدهور، يَرْحلُ في طلبِه إلى الآفاق البعيدةِ مَن لا يُحْصي عدَدهم إلا خالقُهم، ويُواظبُ على تقييده مَن كان الناقل قريباً منه، قد تولى الله حفْظه عليهم، والحمد لله رب العالمين، فلا تفوتهم زلةٌ في كلمة فما فوقها، في شيء من النقل إن وقعتْ

---

(٦١) المصدر نفسه، ٢٢. وقد جَمَعَ أيضاً الشيخ عبد الفتاح أبو غدة كثيراً من أقوال الأئمة في الإسناد، في رسالة بعنوان: "الإسناد من الدين".

(٦٢) في "الفصَل في الملل والنحل"، ٢/٨١ -٨٤، بل وما بعدها أيضاً.

(٦٣) ذكَرَ هذه الخلاصة الشيخ عبدالفتاح أبو غدة، في" الإسناد من الدين":٢٧- ٢٩.وليس هذا الكلام هو نَصُّ كلام ابن حزم، وإن وُضِع بين علامتَيْ التنصيص، وذلك نظراً للفرق بينه وبين كلام ابن حزم في كتابه.

لأحدهم، ولا يُمْكن فاسقاً أن يُقحم كلمة موضوعةً ولله تعالى الشكر.

وأما مع الإرسال والإعضال فيوجد في كثير من [نَقْل] اليهود، ولكن لا يَقْربون فيه من موسى عليه الصلاة والسلام قُرْبنا من محمد ﷺ، بل يَقفون بحيث يكون بينهم وبين موسى أكثر من ثلاثين عصراً، في أَزْيد من ألفٍ وخمسٍ مئة عام، وإنما يَبْلغون بالنقلِ إلى شمعون ونحوه.

وأما النصارى فليس عندهم من صفة هذا النقل إلا تحريم الطلاق وحده فقط، على أن مخرجه من كذاب قد صح كذبه!. وأما النقل بالطريق المشتملة على كذّاب أو مجهول العين، فكثير في نقل اليهود والنصارى.

وأما أقوال الصحابة والتابعين ﷺ، فلا يُمْكن اليهود أن يَبْلغوا إلى صاحبِ نبيٍّ أصلاً، ولا إلى تابعٍ له، ولا يُمْكن النصارى أن يَصِلوا إلى أعلى من شمعون وبولص».

وقال الشيخ مصطفى صبري[٦٤]: «الطريقةُ المتبعَةُ في الإسلام لتوثيق الأحاديث النبوية: أفضَلُ طريقٍ وأعلاها، لا تُدانيها في دِقَّتها وسُمُوِّها أيُّ طريقةٍ عِلميةٍ غربيَّةٍ اتُّبِعَتْ في توثيق الروايات، ففي "صحيح البخاري" مثلاً: ألفانِ

(٦٤) في مواضع من كتابه:" موقفُ العقل والعِلم والعالَم من ربِّ العالمين وعباده المرسلين"، ٥٧/٤ ٥٩، ٦٠، ٨٧، ٨٨. وقد نقلتُ هذا النصَّ عن "الإسناد من الدين"، للشيخ عبدالفتاح أبو غدة، وليس هو كلام مصطفى صبري بالنص، وإنما اشتمل على تقديم وتأخير، وحذفٍ وتغيير، وتصحيح، فكأن الكلام لم يَعُدْ كلامه، ولاينبغي أن يوضع بَين علامتَيْ التنصيص والحالة هذه، وإن كان معناه في الجملة هو معنى كلامه! وإنما اخترتُه على كلام المؤلف لاختصاره وصحة معناه وعُجْمَةِ المؤلف.

وستٌّ مئةٍ واثنان من الأحاديث المُسْنَدَة، سوى المكرَّرة، انتقاها البخاري من مئة ألفِ حديثٍ صحيحٍ يَحْفَظُهُا، وفيه قريبٌ من أَلْفَيْ راوٍ، اختارهم من نَيِّفٍ وثلاثين ألفاً من الرُّوَاةِ الثقاتِ الذين يَعْرِفُهم. وكتاب البخاري، البالغُ أربعَ مجلداتٍ كبيرة، يَبْقَى بعد حذفِ أسانيدِهِ على حَجْمِ مجلَّدٍ واحدٍ متوسطِ الحجم.

فهل سمعتُم، وسَمِعَتْ الدنيا، أَن كتابَ تاريخٍ في هذا الحجم، يُروَى ما فيه سَمَاعاً مِن أَلفَيْ رجلٍ ثقة، يَعْرِفُهم المؤلِّفُ وغيرُهُ من أهل العلم، بأسمائهم وأوصافهم، على أن تكون كلُّ جملةٍ معيَّنَةٍ من الكتاب، مؤلَّفةً من سطرٍ أو أكثَرَ أو أقَلَّ تقريباً، سَمعَها فلان، وهو من فلان، إلى أن اتَّصَلَ -الإسنادُ والسماعُ- بالنبيّ ﷺ، فيُقامُ لكل سَطْرٍ من سُطورِ الكتابِ تقريباً شُهودٌ من الرواة يَتحمَّلون مسئوليةَ روايته»!!.

وقال أيضاً: «ولا مُغالاةَ أصلاً في نَفْي من يُساوي محمداً ﷺ أو يُدانيه، في كون حياته من مبعثه إلى وفاته -ولا سيما أحاديثُهُ مع المناسباتِ الداعيةِ إلى ورودِها- مضبوطةً مدوَّنةً. ولا نُغالي أيضاً إذا قلنا: إن ضبْط سُنَّةِ نبي الإسلام أصحُّ وأَثبَتُ من كُتُبِ أهل الكتاب.

فقدْ أدَّى كمالُ الاعتناءِ الإسلامي بحياة نبينا ﷺ، وتتبُّعِ أقواله وأفعاله، إلى الاعتناء بحياةِ المُتَتَبِّعِين أنفسِهم -أعني الرواة عنه- وليس أحدٌ في الدنيا عُنِيَ، في سبيل العناية به، بكلِّ من لقيه وبكل من روَى عنه شيئاً، وبمن رَوَى، عمن رَوَى، عمن رَوَى إلى آخره، -إلا رسول الله سيدَنا محمداً ﷺ-.

وأُلِّفَ في الصحابةِ الكُتُب، مثلُ طبقاتِ ابن سعدٍ، وكتاب الصحابة لابن

السكن، وكتاب الاستيعاب لابن عبد البر، ومعرفة الصحابة للبغوي، وأُسْدِ الغابة لابن الأثير، والإصابة لابن حجر، وغيرها من المؤلفات، ففيها نحو عشرة آلاف صحابيّ مع تراجمهم.

ودُرِسَ في أسماء كُتبِ الرجال من التابعين، وتَبَعِ التابعين، حياةُ نحوِ مئة ألف رجل على الأقل، وعلى تخمين العالم الألماني" شبرنجر" خمسُ مئةِ ألف، فلا أُغالي إذا قلتُ أيضاً: إن كيفية الاعتناء بحياة محمد ﷺ معجزةٌ من معجزاتِ الإسلام، قال العالم الألماني المارُّ الذكر في مقدمة كتاب "الإصابة" الذي طُبِعَ في كلكته في الهند وتولَّى تصحيحَه: «إن الدنيا لم تر، ولن ترى، أمَّةً مثلَ المسلمين، فقد دُرِسَ بفضل علم الرجال الذي أوجدوه حياةُ نِصفِ مليون رجل».

وحَسْبُكَ أنَّ نَقْدَ الرجال أيْ رجالِ الحديثِ أصبح علماً مدوَّناً في الإسلام، له كتبٌ خاصةٌ لا تستوعبها المجلَّدات، نذكرُ منها: "تهذيب الكمال"، للمِزِّي، وعليه كتابُ علاء الدين مُغْلطاي في ثلاثة عشر مجلداً، و"تهذيب التهذيب"، للحافظ ابن حجر في اثني عشر مجلداً، و"ميزانَ الاعتدال"، للذهبي، و"لسان الميزان"، لابن حجر، وغيرها مما لا يحصى.

كان كلُّ هذا التَّوسُّعِ في تدقيق أحوال الرجال، للاطِّلاع على منزلةِ رواة الأحاديث في الصدق والضبط والأمانة.

قال العلامة الفاضل الشيخ شِبْلي النعماني الهندي في كتابه عن السيرة: «إنَّ كل مِلَّةٍ وكلَّ طائفة من معتنقي الأديان، تُقدِّسُ دينَها وتُفضِّلُه على دين غيرها، فلو وجَّهنا سؤالاً عاماً إلى جميع أهل الأرض عمن له المَوْجُوديَّةُ الفائقة من بين مؤسِّسي الأديان، فلا شك أن الأجوبة على هذا السؤال تَرِدُ مختلِفةً بعَدَدِ

اختلاف مُرْسِليها في الدين.

ولكن إذا زدنا تفصيلاً وإيضاحاً في لفْظ السؤال، فقلنا مثلاً: مَن ذا الذي ضُبِطَ جميعُ نُصوصِ كتابهِ المُنْزَلِ عليه ضبطاً، وثُبِّتَ حَرْفيّاً بموفَّقيَّة وصداقة [لعلَّهُ يقْصِدُ: مصْداقيَّة] لم تكونا من حَظِّ الكتبِ المقدَّسة [أي الأُخرى]؟.

ومن ناحيةٍ أخرى: قُيِّدَ ونُقِلَ جميعُ أفعاله وأقواله وأسفاره وأخلاقه وعاداته، حتى شَكْلُ لباسِه، وصُورةُ تَلَبُّسه، وخُطُوطُ وجهه، وكيفيَّةُ تَكَلُّمِه ومَشْيِه، وطَرْزُ مُعاشَرَتِه، وحتى أكلُه وشُربُه ونومُهُ وتبسُّمُهُ ومَسَاعيه بجميع فروعِهِ وتفاصيله؟ فالجوابُ -لابُدَّ أن يكون- محمدٌ ﷺ»(٦٥).

وقال الشيخ عبد الرحمن المُعَلِّمي: «الإنسان يفتقر في دينه ودنياه، إلى معلومات كثيرة، لا سبيلَ له إليها إلا بالأخبار، وإذْ كان يقَعُ في الأخبار الحق والباطل، والصدق والكذب، والصواب والخطأ، فهو مضطرٌ إلى تمييز ذلك.

وقد هيأ الله تبارك وتعالى لنا سَلَفَ صِدْقٍ، حَفِظوا لنا جميعَ ما نحتاج إليه من الأخبار، في تفسير كتاب ربنا عز وجل، وسُنَّةِ نبينا ﷺ، وآثار أصحابِه، وقضايا القُضاة، وفتاوى الفقهاء، واللغة وآدابها، والشعر، والتاريخ، وغير ذلك.

والتزموا، وأَلْزَمُوا مَن بعدَهم، سَوْقَ تلك الأخبار بالأسانيد، وتتبعوا أحوالَ الرواة التي تُساعدُ على نقدِ أخبارهم وحَفِظوها لنا في جملةِ ما حَفِظوا، وتفقَّدوا أحوال الرواة، وقَضَوْا على كل راوٍ بما يَستحقُّه، فميَّزوا مَن يجبُ الاحتجاجُ بخبره ولو انفرد، ومَن لا يجبُ الاحتجاجُ به إلا إذا اعتَضَد، ومَن لا يُحتَجُّ به

(٦٥) عَلَّقَ هنا في "الإسناد من الدين":٣٣، بقوله:"انتهى باختصار وتصرفٍ يسير" وقد ذَكَرتُ في الحاشية السابقة الملاحظة هناك، وأنه ليس يسيراً، فيما رأيتُ.

ولكن يُستَشْهَد، ومَن يُعتَمَدُ عليه في حالٍ دون أخرى، وما دُونَ ذلك من متساهلٍ ومُغَفَّلٍ وكذاب.

وعَمَدُوا إلى الأخبار فانتقدوها وفحصوها، وخَلَّصُوا لنا منها ما ضمَّنوه كتبَ الصحيح، وتفقَّدوا الأخبارَ التي ظاهِرُها الصحة، وقد عَرَفوا بسَعَةِ علمِهم ودِقَّةِ فهمِهم: ما يَدفَعُها عن الصحة، فشرَحوا عِلَلَها، وبيَّنوا خَلَلَها، وضمَّنوها كتبَ العِلَل.

وحاولوا مع ذلك إماتَةَ الأَخبار الكاذبة، فلم يَنْقُل أَفاضِلُهم منها إلا ما احتاجوا إلى ذكره؛ للدلالة على كذبِ راويه أو وَهنه. ومَن تسامَحَ من متأخِّريهم فرَوَى كلَّ ما سَمِعَ، فقد بيَّنَ ذلك، وَوَكلَ الناسَ إلى النقدِ الذي قد مُهِّدَتْ قواعدُهُ، ونُصبَتْ مَعالمُه، فَبِحَقٍّ قال المستشرقُ المحقِّقُ(٦٦) "مرجليوث": "لِيَفْتَخِرِ المسلمون ما شاءوا بعِلْمِ حديثهم"(٦٧).

(٦٦) قد شاع عند كثير من الناس، ولا سيما نحن المسلمين ظاهرةُ إطلاق الوصفِ على شخصٍ ما بأنه محَقِّقٌ أو علاّمة أو منصِف؛ لمجرّد أننا رأيناه أطلَقَ عبارةً فيها شيء من الإنصاف -وربما لم نتحقق منها- وهذا يُنافي ما ينبغي أن يكون: من التثبت، والنظر المُنصف لتلك العبارة، والنظر إلى العبارة وإلى بقية كلامه وبقية مواقفه ومسْلكه العلميّ، ثم نُصْدِر حُكماً عاماً أو خاصاً أو مُقيَّداً، نراعي فيه منهج هذا الدين في العدْل والنَّصَفَة مع كل أحد، ونبتعد في ذلك عن التعجل أو الحيف أو التناقض. والإسلام ليس بحاجة إلى أن نَجْمَعَ له مَدْحَ أيِّ شخصٍ حتى ولوكان يذمُّه أحياناً، أو لم يُرِد المدح بإطلاقه، إلى آخر هذه الأوجُه، ثم قد نُصَوِّر الأمر على غير ما هو عليه؛ فنُسيء إلى الإسلام من حيث أردنا نفْعه!! و"مرجليوث" هذا ليس كلامه عن الإسلام هو هذا فقط، بل له كتابات كثيرة، عن الحديث والسيرة وغير ذلك، فلابدَّ من شمول النظرة.

(٦٧) مُقَدِّمة المُعلِّمي لِتَقْدمةِ "الجرح والتعديل" لابن أبي حاتم، "أ" و "ب". وهو منقول في "الإسناد من الدين": ٣٣- ٣٤.

رابعاً: فحْصُ المحدِّثين للسند فحصاً دقيقاً:

من الأدلة على توثيق السنّة ومظاهره كذلك: فحْصُ المحدّثين للسند وَفْق ضوابطهم الدقيقة، مما أعطى للسند قيمتَه وأهميتَه، والاعتدادَ به وثيقة صادقة دقيقة في أغلب الأحوال لنقْل الروايات، -بسبب هذا المنهج.

فاشترطوا في السند الاتصال من مبدئه إلى منتهاه.

وليس هذا فحسبُ، بل اشترطوا أنه يتصل بنقل الثقات، وهُمُ العدول الضابطـــون.

فمتى وُجِدَ في السند انقطاع أو راوٍ غير عدلٍ، أو راوٍ غير ضابط رُدّتْ الرواية.

خامساً: فحْص المحدثين للمتن فحْصاً دقيقاً:

من الأدلة على توثيق السنّة ومظاهره كذلك: فحْص المحدثين للمتن، وَفْق ضوابطهم الدقيقة، وعدم الاكتفاء بنقد السند فقط، فلا بدّ أن يدققوا: هل المنقول بالسند يَتَّسق أن يكون من كلام النبوّة أم لا؟.

وقد قرروا أنه إذا جاء متن الرواية باطلاً لم يحتاجوا للحكم ببطلانه إلى النظر في السند، قال المعلّمي: «فإذا قام البرهان على بطلان المتن، لم يتوقف الحكم ببطلانه على وجود متَّهمٍ بالوضع في سنده»[٦٨].

ونَقل الصنعاني عن ابن حجر قوله: "فائدة مهمة عزيزة النقل كثيرة الجدوى والنفع، وهي: من المقرر عندهم أنه لا تلازم بين الإسناد والمتن، إذ قد يصح السند، أو يحسن؛ لاجتماعِ شروطه: من الاتصال، والعدالة، والضبط، دون

(٦٨) حاشية تعليقاته على "الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة"، ص٢٨١.

المتن؛ لشذوذٍ أو علة، وقد لا يَصِحّ السند ويصح المتن مِن طريقٍ أخرى؛ فلا تنافي بين قولهم: "هذا حديث صحيح"؛ لأن مرادهم به: اتصال سنده، مع سائر الأوصاف، في الظاهر، لا قطعاً؛ لعدم استلزام الصحة لكلِّ فردٍ مِن أسانيد ذلك الحديث؛ فَعُلِم أن التقييد بصحة السند ليس صريحاً في صحة المتن، ولا ضعفه، بل هو على الاحتمال؛ فهو دون الحكم بالصحة أو الحسن للمتن؛ إذ لا احتمالَ حينئذ"(٦٩).

وباستكمال نظرهم في المتن يتوصلون إلى معرفةِ هل الحديث ثابت عن رسول الله ﷺ أم لا.

سادساً: فحْصُ المحدثين للكتُب والصحف ونُسَخِ الكتب:

ومن أدلة توثيق السنّة ومظاهره كذلك: فحْص المحدثين للكتب والصحف ونُسَخِ الكتب، وتوثيقهم لها كتوثيقهم للرواة جنباً إلى جنب:

- فنسخوها.
- وقرءوها.
- وصححوها.
- وقعّدوا القواعد للنسخ والتصحيح.
- وكتبوا عليها السَّمَاعات، بمثابة الشهادات والإقرارات!!.
- وتركوا الرواية عن النسخة غير المعتمدة عندهم، وبَلَغَ بهم السموّ في التثبت أن أحدهم ربما إذا شك في روايةٍ واحدةٍ مِن كتابه اجتنبَ الرواية من

(٦٩) توضيح الأفكار، للصنعاني، ١/١٩٥-١٩٦.

الكتاب كله، وقال: «لا والله لا أُحدِّث منه أبداً»!!

قال ابن نقطة: "حدثني عبد العظيم بن عبدالقوي المنذري بمصر قـال: لمـا أرادوا أن يقرءوا سنن أبي عبد الرحمن النسائي على السلفي أتوه بنسخة سـعد الخير وهي مصححة قد سمعها من أبي محمد الدوني، فقال: ما تريدون تقـرؤن؟ فقالوا: سنن النسائي، فقال: فيها اسمي أحمد بن محمد؟ قالوا: لا، قال: فاجتذبها من يد القاري بغيظ ورمى بها وقال: لا أحدث إلا مِنْ أَصْلي، فقالوا له: هـذا بخط سعد الخير وهو ثقة حافظ قد كتبها عن شيخك، فقال: إن كان فيها اسمي وإلا فلا أحدث بها، و لم يحدث بها حتى مات"[(٧٠)].

سابعاً: مبدأ اختبار الشيخ للتلميذ، واختبار التلميذ للشيخ عندهم:

ومن أدلة توثيق السنّة ومظاهره كذلك: مبدأ اختبار الشيخ للتلميذ عندهم، واختبار التلميذ للشيخ، دون مجاملة!! وذلك للتوثق: هل التلميذ أهلٌ لحمل حديث رسول الله ﷺ؟! وهل الشيح أَهلٌ لأنْ يؤخذ عنه حديث رسول الله ﷺ؟! ومشهور مِنْ هذا الصنيع:

- اختبار أهل بغداد للإمام البخاري.
- وقصة اختبار يحيى بن معين لشيخه أبي نعيم الفضل بن دكين، بصحبة أحمد ابن حنبل وآخر.

فكم شيخٍ اختَبَرَهَ تلميذه فتركه و لم يعرّج عليه.

---

(٧٠) التقييد لمعرفة رواة السنن والمسانيد، لابن نقطة، ٢٠٥/١، وانظر بعده ففيه قصة امتناع السلفي، أيضاً، الإقراء من كتاب اللالكائي لكون النسخة ليست هي النسخة التي عليها سماعه.

وكم من تلميذ اختبره شيخه فطرده.

وكم من تلميذ اختبره شيخه فقرّبه، وربما خصّه بالتحديث في أوقاتٍ!!

فهل وُجدَ هذا المبدأ في الرواية والتربية والتعليم عند غير المسلمين؟!

وهل يمكن أن يوجد؟!

هيهات هيهات!

ما بال بعض القوم، إِذَنْ، يتكلمون؟

يتكلمون في ماذا؟!

يتكلمون في مدى الثقة بروايات المسلمين عن نبيّهم!

سبحان الله! لقد قيل: إن الذي بيته من زجاج لا يرمِ الناسَ بالحجارة!

ثم كيف يتجرّأون؟ وكيف يجدون طريقاً للطعن في منهج المحدثين في نقْل حديث رسول الله ﷺ والحالة هذه؟!

ثامناً: مبدأ الرحلة عندهم في طلب الحديث:

ومن أدلة توثيق السنّة ومن مظاهره كذلك: مبدأ الرحلة عندهم في طلب الحديث، بل ربما في طلب الحديث الواحد، فكم سافر الواحد منهم إلى أقطار بعيدة، بوسائلهم المتواضعة والمكّلفة والمتعبة، كل ذلك أحياناً من أجل حديث واحدٍ ليسمعه من الراوي، وذلك من أجْل اتصال السند، أو من أجْل علوّ السند!.

والأمثلة على هذا كثيرة مشهورة![٧١].

---

(٧١) يُنظَر: الباب الثاني، المبحث الثاني، المطلب الثاني، من هذا البحث.

تاسعاً: طبيعة مجالس التحديث عندهم:

ومن أدلة توثيق السنّة ومن مظاهره كذلك: مجالس التحديث عندهم، ومبدأ الضبط والتثبت فيها، وفكرة مُقَرِّرِ المجلس التي يكفي المحدثين والمسلمين شرفاً أن تحصل ولو مرة واحدة في تاريخهم؛ ليتبين إلى أيّ مدى من السموّ في التفكير ذهب المحدِّثون، وإلى أيّ مدى بلغت هذه الأمة في التثبيت في النقل عن نبيها ﷺ.

ومقرِّرُ المجلس هو شخص يكتب كل شيء عن الدرس وسَيْرِهِ وشيخهِ وتلاميذه، وقارئ الحديث في المجلس، والكتاب، والمتأخر، والمتشاغل، والناعس وعند أيّ موضعٍ من القراءة برى فلانٌ قلمه؟! وعند أيّ موضع من القراءة جاء فلان المتأخر؟!.

والحمد لله قد بقيت بعض الوثائق المخطوطة بأيديهم -رحمهم الله تعالى- شاهدة بمثل هذا الصنيع، ونحمد الله أننا لا نتكلم عن المحدثين ومنهجهم ونمدحه بمحض عواطفنا، بل نحن عاجزون - لو أطلقنا العنان لخيالنا وعواطفنا لنمدحه ونمدحهم من عندنا - عاجزون أن يصل تفكيرنا إلى هذا المستوى من التثبت في الروايــة.

نعم لاشك أبداً في أننا في هذا العصر أعجز ما نكون لأنْ نَصِلَ بمجرد التفكير والخيال -ودعك من العمل والتنفيذ- إلى مستوى ما كان عليه المحدِّثون من هذه الصور الرائعة في التثبت!!.

وعندئذٍ حُقَّ لمن يندهش أن تأخذه الدهشة فيقول:

ما بال هؤلاء القوم، إِذَنْ، من أهل هذا العصر من المستشرقين ومَن تابعهم،

يرومون إسقاط منهج المحدِّثين في الرواية ونقدها؟!.

وما بالهم يطعنون فيما لم يَصِلوا إلى مستواه من الثقة والتوثق ولن يَصلوا!.

حقاً إن منهج المحدثين ليس قواعد علمية نظرية منضبطة فريدة فحسبُ، وإنما هو أيضاً قد بقي بصور التثبت هذه -بروعتها وتعددها- وثائقَ ناطقة لا تشهد فقط لمنهج المحدثين بالثقة، ولكن تشهد بالإعجاز الإلهي في طريقة النقل هذه التي لا مزيد عليها في الثقة والتثبت، والتي لا يمكن أن يصل إلى مستواها أحدٌ فضلاً عن أن ينقضها ناقض.

نعم يتجلى في هذا الإعجازُ الإلهيُّ في عمل البشر المخلوقين، ليتبين بذلك أن هذا الدين حقٌ لا مرية فيه، فتبارك رب العالمين!!.

عاشراً: الجرح والتعديل ودقّته وسجلاّتهم فيه:

ومن أدلة توثيق السنّة، ومن مظاهره كذلك: الجرح والتعديل عندهم، ودقّته، وسجلاّتهم فيه، وعدم مجاملتهم فيه للآباء والأبناء والإخوة، للحفاظ على حديث رسول الله ﷺ. ولعلّ الأمثلة على هذا معروفة مشهورة.

ووثائق المحدّثين في جرح الرواة وتعديلهم؛ من أَجْلِ التوثق في الرواية عن نبيّهم، باقية معروضة على الناس في سجلاّتهم وكُتبهم في الجرح والتعديل وتراجم الرجال.

حقاً إن تلك الكتب في الجرح والتعديل سجلاّتٌ موثّقة لأئمة الحديث، تشهد بحسن صنيعهم ودقّة منهجهم.

لقد كانوا يُعْنون بتدوين تلك المعلومات عند أسماء الرواة وأنسابهم وتاريخ حياتهم بما لا مثيل له في الدنيا.

لقد انشغلوا بهذا الجانب الذي يبدو لبعض الناس بعيداً عن رواية الحديث!.

وحقيقةُ الأمر أنه في الصميم، وأنه كان عملاً ضرورياً دقيقاً، وإن التنبه له والعناية به أشبه ما يكون بالمعجزة، بل هو إعجاز إلهيّ أيضاً يظهر في عمل البشر!.

إن للتجار وأهل الدنيا سجلاتهم ودفاترهم التي يَحْملونها ويحافظون عليها ويدوّنون فيها دنياهم وأموالهم والحقوق التي لهم عند الناس، ويُثْبتون فيها أسماء زبائنهم وغرمائهم، وما بينهم من معاملات وشروط.

أمّا المحدِّثون – رحمهم الله تعالى – فسجلاّتهم ودفاترهم لا تحمل شيئاً من هذا كله! وكيف يكون فيها شيء من ذلك وهم في غالب أحوالهم لم يشتغلوا بشيء من الدنيا وأعمالها، بل منهم من انقطع عن كل شيء إلا عن حديث رسول الله ﷺ؟!

إِذَنْ، ماذا في دفاتر المحدّثين وسجلاتهم؟!

إن فيها الروايات عن رسول الله ﷺ نبيّهِم الذي آمن به التابعون فمَنْ بعدهم ولم يروه، ويتطلّعون إلى رؤيته ﷺ يوم القيامة!

وتَخَصَّص المحدِّثون منهم بالاشتغال بحديثه، وبجَمْع رواياته، ورواته وأسانيده!!.

فسجلاّتهم التي انشغلوا بها وعُنُوا بها ليست كسجلات ذلك الصنف من الناس، وإنما دوّنوا فيها:

– روايات حديث نبيهم، عليه الصلاة والسلام، ورحمهم الله تعالى.

– وأسماء رواة الحديث، وتاريخ حياتهم، وبيان أحوالهم من حيث الثقة وعدمها.

وهؤلاء هم زبائنهم الذين يتعاملون معهم، لكنهم لا يأخذون منهم شيئاً من الدنيا. كلاّ، كلاّ، وإنما يبحثون عن الدِّين!!

فأيّ الفريقين أحق برضا مولاهم وخالقهم؟!

وأيّ الفريقين أقرب إلى نبيهم؟!

وأيّ الفريقين أولى بالسعادة في الدنيا والآخرة؟!

وأيهم أولى بالحمد والثناء؟!

وأيهم دعا له رسول الله بالنضارة؟!

هذا على أنّ الدنيا في حُكم هذا الدين ليست حراماً، ولكن شتان بين مجال ومجال، وإنْ كان لا يخلو ذلك الصنف من الناس، المتجه للمال والتجارة، مِنْ قائمٍ لله بأمره في مجاله!

والحقُّ أن اندفاع المحدّثين لتسجيل المعلومات في سجلاّتهم أعظمُ من اندفاع أهل التجارة والأموال لتسجيل معلوماتهم في سجلاّتهم.

وإذا أَحضر كلٌ سجلاته تبين الفرقُ بين السجلاّت والسجلاّت، والفرقُ بين أصحابها وكاتبيها، والفرقُ بين وظيفةِ هذا الصنف وهذا الصنف!

حادي عشر: تسخير الله سبحانه للمحدِّثين لهذا التخصص:

ومن أدلة توثيق السنّة، ومن مظاهره كذلك: تسخير الله سبحانه للمحدِّثين لهذا التخصص، ولابتكار هذا المنهج، وتطبيقهم له، وانقطاعهم لهذا الشأن!!

ويُدْرك هذا التسخير الإلهيّ من يطّلع على الآتي:

- حياة المحدثين وأوصافهم.
- أخبارٌ عن جوانبَ مِن تسخير الله لهم لينخرطوا في هذا المجال. ومِن ذلك ما جاء عن بعضهم أنه لا يستطيع أن يشتغل بغير الحديث مِن العلم بسبب ما يجدُهُ مِن صَرْفه إليه صرفاً لا يدري ما سببه، ومِن هذا: ما ذكره الخطيب

البغدادي عن الحافظ أبي بكر أحمد بن محمد البَرْقاني بقوله: «ولم يقطع التصنيف إلى حين وفاته، ومات وهو يجمع حديث مِسْعَر.

وكان حريصاً على العلم، منصرف الهِمَّة إليه، وسمعته يوماً يقول لرجل من الفقهاء -معروف بالصلاح- وقد حضر عنده: ادع الله أن ينـــزع شهوة الحديث من قلبي، فإن حُبَّه قد غلب عليَّ فليس لِيَ اهتمام بالليل والنهار إلا به، أو نحو هذا من القول، وكنت كثيراً أذاكره بالأحاديث فيكتبها عني ويضمّنها جُمُوعَه»[٧٢].

- دقة منهجهم التي وصلت إلى حدّ الإعجاز الذي ليس بمقدور البشر أن يصلوا إليه لو لم يوصلهم إليه الله تبارك وتعالى.

أمّا دقة منهجهم فقد عرفتَ جوانب منها مما سبق، وسيأتي مزيد عنها فيما بعـــد.

وأما أوصاف المحدثين وتاريخ حياتهم فتشهد بأنهم ما كان يمكن أن يكونوا كذلك لولا أن ربهم وخالقهم عزّ وجل هو الذي سخّرهم ودفعهم إليه، تسخيراً يتجلّى في استجابتهم لمقتضيات الإيمان، واستجابتهم لقدَرِ الرحمن!.

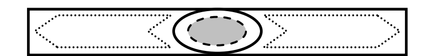
وامتثالاً لمتطلبات إيمانهم بالله أقبلوا على هذا النوع من الطاعة والعبادة، وتحمّلوا في سبيلها المشاق.

وخضوعاً لقدرِ الله الخالق سبحانه أصبحوا كأنهم خَلْق آخر أسمى من البشر، في أجساد البشر وأرواحهم! لكنّ الحقيقة أنهم بشرٌ، إلا أنهم قد سَمَتْ بهم

(٧٢) تاريخ بغداد ٣٧٤/٤.

نفوسهم وهممهم العالية وإيمانهم بالله تعالى ويقينهم.

ويمكنك الوقوف على طرفٍ من أوصافهم في كتب تراجم الرجال[٧٣].



(٧٣) يُنظَر في أوصافهم: الباب الثاني، المبحث الأول، من هذا البحث.

تصورات ومواقف تتعارض مع مكانة السنة وحجّيّتها

هناك عددٌ من التصورات والمواقف التي تتعارض مع اعتقاد مكانة السنّة وحجّيّتها، ومن ذلك ما يلي:

- جهْل قدْر منهج النقد عند المحدثين وعدم معرفة قدره وأهميته.
- عدم الثقة بمنهج النقد عند المحدثين، وعدم القناعة به ميزاناً لتمييز ما يصح من الروايات عما لا يصح.
- إِعمالُ قاعدةِ: "ليس معنى قولهم: هذا حديث صحيح أنه صحيح في الواقع وفي نفس الأمر..."(٧٤).
- قفْلُ باب الاجتهاد في مواصلة تطبيق منهج المحدِّثين في الحكم على الروايات صحةً وضعفاً.
- التسرع إلى القول في تصحيح الروايات وتضعيفها قبل التأهل له تأهلاً كافياً وفْق منهج المحدِّثين.
- التخيُّر من الأحاديث الثابتة عنه ﷺ، وعدمُ التسليم لها كلها، ومِن هذا التخيُّر: القول بردِّ حديث الآحاد في الاعتقاد..
- عدمُ احترام حديث رسول الله ﷺ، وعدم تقديره حق قدره.
- عدم التسليم بأن السنّة وحيٌ، أو الغفلة عن ذلك، والتصور المخطئ بأن

(٧٤) سيأتي بعد قليل بيان هذه القاعدة ومناقشتها.

الحديث درجة ثانية من درجات نصوص الدين، يأتي بعد القرآن، مع أنّ كلاً منهما وَحْيٌ إلهيٌّ، وواجبٌ الأخذ به دون خيارٍ أو اعتذارٍ.

إلى غير هذا من التصورات والمواقف.

خطأُ قاعدةٍ مشهورةٍ

قال الإمام ابن الصلاح: «ومتى قالوا: "هذا حديث صحيح" فمعناه أنه: اتصل سنده، مع سائر الأوصاف المذكورة، وليس مِن شرطه أن يكون مقطوعاً به في نفس الأمر؛ إذ منه ما ينفرد بروايته عدلٌ واحد، وليس من الأخبار التي أجمعت الأمة على تلقيها بالقبول.

وكذلك إذا قالوا في حديث: "إنه غير صحيح" فليس ذلك قطعاً بأنه كذِبٌ في نفس الأمر؛ إذ قد يكون صدْقاً في نفس الأمر، وإنما المراد به أنه لم يصحّ إسناده على الشرط المذكور، والله أعلم»[٧٥].

المراد بهذه القاعدة:

لعلّ المراد بهذه القاعدة النظرةُ العقليّةُ البحتةُ المجرّدةُ عن قصْد القائل بها ترتيب حُكْمٍ عليها، أو قَصْدِ إضعاف ثقة الإنسان بالصحيح، أو تقويةِ الاحتمالِ الصحةِ الضعيف.

---

(٧٥) علوم الحديث، لابن الصلاح: ١١.

الموقف الصائب من هذه القاعدة:

الموقف الصائب من هذه القاعدة أن يُنظر لها على أنها إشارةٌ إلى ملاحظة نظرية، تَتّجهُ نحو التدقيق بموضوعية نظرية، دون أن يكون المراد منها بِناءُ أيِّ موقفٍ عَمَلِيّ عليها.

فالواجب إهمال هذه القاعدة وعدمُ إعمالها في الواقع والتطبيق، ولا يصح أن يُلْتَفَت إليها عملياً بحالٍ.

وذلك لأن منهج المحدِّثين في توثيق الروايات، وأصوله التي أَرْسَوْها تغني تماماً عن هذه القاعدة.

ولو أُخِذَ بهذه القاعدة على ظاهرها لوَجَبَ إسقاطُ أصول المنهج المتّبع لدى المحدثين في مجال تمحيص الروايات!.

وهل يستقيم في منطق العقل وفي منهج تَلَقِّي العِلم أن يُسْقط العِلم كله بكلمةٍ واحدةٍ أو قاعدةٍ واحدة؟!.

أيُّ تدقيقٍ هذا؟!.

إن من التدقيق ما يكون خروجاً عن منهج التدقيق والتمحيص، وذلك حينما يكون التدقيق -مثلاً- اتّباعاً للاحتمالات الضعيفة وإسقاطاً للاحتمالات الراجحة أو الثابتة بالأدلة والمنهج!.

إنّ الأخذ بالاحتمالات الضعيفة اتّجاهٌ بغير دليلٍ.

وإنّ الحُكم للاحتمالات الضعيفة في مقابل الاحتمالات الراجحة أو الأدلة الراجحة عدولٌ عن منهج التحقيق والتثبُّتِ -ولو بدا من ظاهر الأمر أنه تَدقيق!-.

إنّ شروطَ المحدِّثين وجمهورَ قواعدهم قد سدَّت الطريق على الظنون

والتخرصات أو السَّيْر وراء مثل هذه القاعدة.

ثم مؤدَّى هذه القاعدةِ ليس عِلْماً وإثباتاً، وإنما هو الشكّ والتشكيك فحسبُ، وهو ليس عِلْماً ولا يقيناً ولا رُجْحاناً، ﴿**أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيّاً عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾(٧٦)؟!.



(٧٦) ٢٢: المُلْك: ٦٧.

خطواتٌ عمليةٌ لتمييز الثابت من الروايات عما سواه

إذا كان الأخذ بمنهج المحدِّثين في التثبت من صحة الروايات ضرورة شرعية، فإنه لا يجوز تجاهله في تلقّي الدين!

ومِن المسلَّم به -مع هذا- أنه ليس كل الناس مُلمِّين بمنهج المحدثين؛ فما الحلّ في هذه الحال؟!

الجواب هو: ليس من اللازم دائماً للأخذ بمنهج المحدِّثين أن يَحْكم الإنسان بنفسه على الروايات، وإنما يُمْكِن أن يَعْتَمد على حكم غيره من المختصين المعتمدين الذين ألّموا بمنهج التثبت عند المحدِّثين محرَّراً -بصورة نظرية وتطبيقية-.

ويُمْكن للمرء -لو كان غير متخصص- أن يتعرّف، في أحيانٍ قليلة، على حكم الرواية صحةً وضعفاً إذا ما اتبع الخطوات العملية المساعدة التالية:

١- أن يجدَ الرواية في الصحيحين أو في أحدهما بسند متصل.

٢- أو يجدَ الحكمَ على الرواية بالصحة أو بالضعف أو بالوضع عن واحد أو أكثر من الأئمة المعتَمَدين في الحديث وتمييز صحيح رواياته من سقيمها، ولا يخالفه حُكمُ أحدٍ غيره في ذلك، أو يُخالفه غيره ولكن يتبين الراجح من القولين في هذه الحال.

٣- أو يَدْرس الباحث المتخصص روايةَ الحديث وَفْق منهج المحدِّثين في نقْد الروايات، ويحْكم عليها بما تؤدي إليه الدراسة، وهذه الخطوة خاصة

بالمتخصصين قطعاً، وتحتاج إلى علم وفقهٍ وتقوى.

ومما يؤسف أن يَقتحم هذا التخصص الدقيق مَن ليس مِن أهله؛ فيحكم على الروايات عن رسول الله ﷺ دون تفكير في العواقب، ودون أن يُعاقَب، أو يخاف أن يُعاقب، إنْ لم يكن في الدنيا ففي الآخرة!.



خاتمة هذا الموضوع

لعل ما مضى من القول ينتهي بنا إلى التساؤل عن واجب المسلم تجاه حديث رسول الله ﷺ محدَّداً في نقاط.

ويمكن لنا أن نلخص هذا الواجب الشرعيّ على كل مسلم في النقاط التالية:

- التسليم لأحاديث النبي ﷺ، واعتقاد حجيتها ومكانتها التي وضعها الله فيه.
- التثبت في روايتها، والحذر من عَزْوِ حديث إلى رسول الله ﷺ لا يصح عنه، والحذر من ترْك حديث ثابت عن رسول الله ﷺ، أو معارضته بأيّ صورةٍ كانت، سواءٌ أكان حديثاً متواتراً أم حديث آحاد، صحيحاً أم حسناً.
- التثبت في فهم السنة وفقهها، وهذا يوجب العناية بمعرفة الطريق إلى ذلك.
- احترام حديث رسول الله ﷺ وإجلاله.
- العناية بحديث النبي ﷺ قراءةً ودراسةً وفهماً وتطبيقاً.
- عدم التفريق في الحجية والمكانة بين كتاب الله وحديث رسول الله ﷺ.

والحمد لله أوَّلاً وآخِراً، وصلى الله وسلم على خاتم الأنبياء والمرسلين وعلى آله وأصحابه أجمعين.



الباب الثاني

عِنَايَةُ السَّلَفِ بالسُّنَّة النبويَّة

المعالم والمنهج

مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أمّا بعد: فهذه وريقاتٌ أقدِّمها في موضوعٍ في غاية الأهميّة، هو: عناية السلف بالسنّة النبوية: المعالم، والمنهج.

وقد كان أصل فكرة الموضوع ليس نقلاً وتجميعاً، وإنما هو استقراء لما كان عليه المحدِّثون مِن منهج، ولِما بذلوه مِن جهودٍ مباركة، وفي أثناء هذا نقلتُ بعض النصوص، ووضعتها في مواضعها التي رأيتها مناسبةً، وكان بعض النصوص المنقولة فيها بعض الأخطاء المطبعية، ونحوها، فأصلحتها، وما كان مِن العبارات قد سقط مِن الكلام أضفتُهُ بين معكوفتين، ولم ألتزم الإشارة إلى ذلك في الحاشية؛ لئلا أطيل في أمرٍ لا يستحق الإطالة.

ونقلتُ كثيراً مِن المنقول عن "سير أعلام النبلاء" عن طريق مختصره: "نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء"، لمحمد حسن عقيل، وتبيّن لي أن هذا التهذيب جهد طيبٌ مشكور، جزى الله صاحبه خيراً؛ فقد قرّب السِّيَرَ، مع المحافظة على أهم خصائصه، وهو جانب الرواية والجانب الحديثيّ والفوائد عن المترجَمين، وتعليقات الذهبيّ، رحمه الله تعالى.

وقد سبق أن كتبتُ موضوعاً آخرَ، له صلة بهذا الموضوع، عنوانه: "توثيق السُّنَّة النبويَّة: مَلامِحُ عَنْ مَنْهَجِهِ، ودلائِلِه، ومظاهِرِه"[٧٧].

(٧٧) مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، بالرياض، العدد الأربعون، شوال، ١٤٢٣هـ، =

وسبقني بالكتابة عن موضوع عِنَايَة السَّلَف بالسنّة العلماء الذين كتبوا كتاباتٍ متفرقةٍ عن هذا الموضوع، أو عن جُزئياتٍ منه، وذلك في المؤلفات التي تناولت تاريخ السُّنَّة، وتدوينها، ومؤلفات الأئمة فيها، ومصطلحات المحدثين، مثلُ:

- "الرسالة المستطرفة لِبيانِ مشهور كتب السُّنة المشرفة"، للكتاني[٧٨].
- و"فِهْرِسْتْ"، ابن خير[٧٩]، الذي اشتمل على أسماء وأسانيد كثيرٍ من كُتُب الحديث من مؤلفات أهل المشرق، التي يرويها بالسند عن مؤلفيها.
- "عناية المحدثين بتوثيق المرويات"، د.أحمد محمد نور سيف[٨٠]، وهو رسالة صغيرة، تتناول طرُق المحدِّثين في صيانة المصنفات، والدّقة في نقْلها بعيداً عن العبث والتحريف والتزوير.
- "توثيق النصوص وضبطها عند المحدِّثين"، د.موفق عبدالقادر[٨١]، وهو يتناول أصول المحدِّثين وطرائقهم واصطلاحاتهم في نَسْخ الكتب، وطريقة تحقيق الكتب.

=

ص ٣٢٩-٤٠٤.

(٧٨) دمشق، دار الفكر، ط.٣، ١٣٨٣هـ-١٩٦٤م، وقد طُبع عدة طبعات بعد هذه الطبعة.

(٧٩) وهو فهرسة ما رواه عن شيوخه من الدواوين المصنفة في ضروب العلم وأنواع المعارف الشيخ الفقيه المقرئ المحدث المتقن: أبو بكر محمد بن خير بن عمر بن خليفة الأموي الإشبيلي، (٥٠٢-٥٧٥هـ) (١١٠٨-١١٧٩م)، نشره "فرنسشكه قداره زيدين"، وتلميذه "خليان ربَارة طرغوه"، ط.٢، ١٢٨٢هـ-١٩٦٣م.

(٨٠) بيروت، دار المأمون، ط.الأولى، ١٤٠٧هـ.

(٨١) مكة المكرمة، المكتبة المكية، ط.الأولى، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م.

ولابدّ أن أُشير هنا، أيضاً، إلى أن أصل هذا الموضوع كان محاضرةً ألقيتها في مدينة جدة، بدعوةٍ مِن مركز الدعوة والإرشاد بها، جزاهم الله خير الجزاء على ما تسببوا به في كتابة هذا الموضوع.

كما أُشير إلى أنني اضطررتُ إلى شيءٍ مِن الحذف والاختصار في هذا الموضوع ؛ وذلك نظراً لضيق المساحة المخصصة للبحوث عادةً في الدوريات العلمية.

ولعل أهم ما أردته في منهج البحث أن أجمع الموضوع من مختلف أطرافه، وأن أُورد كلام المحدِّثين ومواقفهم، وأن أقرأ ذلك قراءةً جديدة، مِن خلال النظر في مودّاه ولوازمه ومقتضياته في حفظ السنة والعناية بها، ولذلك لم أقتصر على مجرّد إيراد شروط المحدثين لقبول الحديث، مثلاً، وإنما قرأتها قراءةً جديدة لم أرها في شيءٍ من الدراسات في التخصص، ومما أضفتُهُ بالبحث، كذلك، ما فكّرت فيه ونفّذتُهُ من إحصاءات لمؤلفات بعض المحدّثين، وعدد أوراقها، وما إلى ذلك مِن إحصاءات، وربطتُها بلازمها ودلالاتها في خدمتهم للسنة النبوية وعنايتهم بها، ومما عُنيتُ به، كذلك، لَفْتُ الأنظار إلى أهمية الاستثمار لعددٍ مِن علوم الحديث في التربية والتهذيب والتزكية، إضافةً إلى توثيق الحديث، وعُنيتُ بصياغة البحث صياغةً تَخدمُ هذا الهدف، فجاءت لغةُ البحث وأسلوبه مختلفَيْن عن ما اعتاده الناس مِن صرامة لغة علوم الحديث وأسلوبها،وجفاف عبارتها.

وآمل أن أكون قد فتحتُ أبواباً للمتخصصين تحتاج إلى مواصلة البحث والدرس، وذلك من خلال عددٍ من العناوين، ومنها، على سبيل المثال: تلك الأنواع من الإحصاءات التي ذكرتها في موضعها...إلخ.

وقد جاء الموضوع في عناصر عامة، وفق الآتي:

المقدمة: واشتملت على: أهمية الموضوع ، ومنهج البحث، وأهم عناصره، وتوطئة اشتملت على: تسلسل الأبناء مع الآباء في أداء هذه المهمة، ومعنى السنة في هذا الموضوع.

المبحث الأوّل: وصْف المحدِّثين وأقوالهم عن مهمّتهم :

المطلب الأول: وصْفُ المحدّثين.

مِن أخلاقهم في الرواية.

سَعَةُ حفظِهم.

حِرْصهم على الحديث الواحد.

المطلب الثاني: من أقوالهم عن مهمتهم.

المبحث الثاني: إحصاءاتٌ تَرْوِي الحقيقة، (وفيه عدد من الإحصاءات عن مؤلفاتِ عدد من الأئمة).

المبحث الثالث: مظاهر عنايتهم بالسنة.

المطلب الأول: إجمالٌ لمظاهر عنايتهم بالسنّة.

المطلب الثاني: رحلاتهم وتَضْحياتهم في طلب الحديث.

المطلب الثالث: عناوين تَرْوِي الحقيقة.

المبحث الرابع: منهج عنايتهم بالسّنّة.

خاتمةُ هذا الموضوع.

أسأله تعالى أن يَنفع بهذه الوريقات، وأن يَكتب لي ما بذلتُه فيها مِن جهدٍ

وأوقات، وأن يَجعلها حجةً لي، لا عليَّ، وأن يجعلها مباركةً متقَبَّلةً، إنّ ربي لطيفٌ لِما يشاء.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلّم وبارك على خاتم الأنبياء والمرسلين.

المؤلــف

المدينة المنورة

١/٦/ ١٤٢٨هـ



عناية السلف بالسُّنّة النبويّة: المعالم والمنهج

توطئـــة:

الحمد لله رب العالمين كما ينبغي له، والصلاة والسلام على رسوله وعلى آله وأصحابه أجمعين. أمّا بعد:

فأنا عاجز، ومعترف بعجزي، عن مجرد التعريف بجهود السلف تجاه حديث رسول الله ﷺ تعريفاً يَفِي بنقْل الحقيقة!

فعن ماذا نتحدث؟!

عن ماذا نتحدث من جهودهم تجاه سنة رسول الله ﷺ؟!

إن المقام واسع!

فهل نتحدث عن الراحلين على أقدامهم من بلدٍ إلى بلد طلباً لسماع حديث رسول الله ﷺ من الشيوخ، الذين قد يظفر أحدهم بمطلبه، وقد يفوته ذلك-إذا وصل إلى بلد الرحلة-لسفر الشيخ أو لوفاته، فإذا وَصَلَ هذا المرتحل من أجل ذلك الشيخ، إلى بلد الشيخ، وسأل عنه قالوا له: رحمه الله، قد توفي!.

أو نتحدث عن سعة حفظهم للروايات؟

أو نتحدث عن كثرة الحاضرين في مجالس التحديث؟

أو نتحدث عن كثرة عدد شيوخ بعضهم؟

أو نتحدث عن مؤلفاتهم؟

أو نتحدث عن أخلاقهم؟

أو نتحدث عن منهجهم؟

أو نتحدث عن قصصهم وشِيَمهم في الحرص على حديث رسول الله ﷺ؟.

أو نتحدث عن تحمّلهم شدة الحياة وشَظَفَ العيش في سبيل حديث رسول الله ﷺ؟

أو نتحدث عن اختباراتهم في مجال سماع الحديث وأدائه؟

أو نتحدث عن نفقاتهم في طلب حديث رسول الله ﷺ؟

إلى آخر ما هنالك.

إن المقام واسع، فلْنُشِرْ إشارات، ونقف عند بعض المباحث بعض الوقفات.

تسلسلُ الأبناء مع الآباء في أداء هذه المهمة:

لقد تسلسل أبناء الصحابة رضوان الله عليهم مع آبائهم في أداء هذه المهمة، يتلقى منهم الخالف عن السالف، والابن عن أبيه، فكثير من علماء التابعين هم من أبناء الصحابة رضوان الله عليهم، وأبناءُ الصحابة جُلّهم -إن لم يكونوا كلهم- قد أصبحوا علماء.

ثم جرى على هذه الحال التابعون، فمن بعدهم، مع أبنائهم.

وكم من بيتٍ قد أصبح أفراده جميعاً علماء!.

وكم من عالِمٍ متميز قد أصبح ابنه مثله، أو فاقَهُ!

فهذا الإمام أبو حاتم الرازي الحافظ المحدّث الكبير، قد أصبح ابنه أبو محمد عبد الرحمن قد أخذ عنه الحديث وعن عمه أبي زرعة الرازي. وقد كَتَبَ -فيما كتب- ترجمةً حسنةً لكلٍ من أبيه وعمه.

وهذا سفيان بن سعيد الثوري قد أخذ العلم عن والده المحدِّث الصادق سعيد بن مسروق الثوري.

وهذا الحافظ عبد الغني بن عبد الواحد المقدسي أبناؤه كلهم علماء! وماذا أُعدد مِنْ هذا؟! لا نستطيع الحصر ولكنها مجرّد إشارة إلى الظاهرة فقط.

وعند هذا المقام ينبغي أن نتساءل: في ماذا يتسلسل الأبناء والآباء اليوم من الأعمال والأحوال؟! ما أحوجنا إلى التأمل والمحاسبة!.

معنى السنة في هذا الموضوع:

أُطْلِقَ لفظُ السنّةِ على معانٍ منها ما يلي:

السنة: بمعنى: الشِّق الثاني من الوحي الإلـــهي. وهي ما ثبت عن النبي ﷺ غير القرآن، من قول أو فعل أو تقرير أو وصف خَلْقي أو خُلُقيّ أو هم به، سواء كان ذلك قبل البعثة أو بعدها، يقظة أو مناماً(٨٢).

كما أطلق لفظ (السنة) على ما تداوله الفقهاء، بمعنى السنة التي هي في مقابل الفرض والواجب من المأمورات الشرعية. وهي: كل ما أَمر به النبي ﷺ أو داوم عليه، مما ليس بفرض ولا واجب. وقد عني السلف الصالح من أئمة هذا الدين بالسنة بهذين المعنيين، على مختلف الأعصار والأمصار، وتخصص بكلٍ منهما لفيف من الأئمة المحققين يَخْلف بعضهم بعضاً في كل عصر ومصر، من

(٨٢) انظر: فتح الباري، ١٣/٢٤٥، الوسيط في علوم ومصطلح الحديث، لأبي شهبة، ١٦، الـــسنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، للسباعي، ٤٧، دراسات في الحديث النبوي، محمـــد مـــصطفى الأعظمي، ص١.

لدن زمن النبي ﷺ إلى يومنا هذا.

وسأتناول فيما يلي بالبحث والبيان موضوع عناية أئمة السلف الصالح بالسنة بهذين المعنيين. وأقدّم أولاً الحديث عن جهودهم المتعلقة بالسنة بالمعنى الأول، التي هي الراوية عن رسول الله ﷺ.



المبحث الأوّل
وصْف المحدِّثين وأقوالهم عن مهمّتهم

المطلب الأول: وصْفُ المحدّثين:

ساقَ الإمام ابن حبان في "المجروحين" بالسند إلى "محمد بن منصور، قال: مرّ أحمد بن حنبل رحمه الله، على نفرٍ من أصحاب الحديث، وهم يَعْرضون كتاباً لهم، فقال: ما أحبَّ هؤلاء إلا محمد، قال رسول الله ﷺ: (لا تزال طائفة من أمتي على الحق حتى تقوم الساعة...)[٨٣]. - قال أبو حاتم - ومَنْ أحقُّ بهذا التأويل من قومٍ: فارقوا الأهل والأوطان، وقَنِعوا بالكِسَرِ والأطمار، في طلب السنن والآثار، وطلبِ الحديث والأخبار، يجولون في البراري والقفار، ولا يبالون بالبؤس والإقتار، متّبِعون لآثار السلف من الماضين، والسالكون ثَبَجَ[٨٤] محجّة الصالحين، وردِّ الكذب عن رسول رب العالمين وذبِّ الزور عنه حتى وَضَحَ للمسلمين المنار، وتَبَيّن الصحيح من بين الموضوع والزور من الآثار.

(٨٣) هذا لفظ الحديث الذي ساقه به ابن حبان في "المجروحين" ١/ ٨٩، ومثله في المستدرك للحاكم، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، ٤/ ٤٩٦، وقال: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يُخرّجاه"، ووافقه الذهبي في تلخيصه، وأخرجه غيره. وجاء الحديث بألفاظ أخرى في عدد من المصادر، منها الصحيحان، جاء بأكثر من لفظٍ فيهما، يُنظر صحيح البخاري، الحديث رقم ٧٣١١، الاعتصام بالكتاب والسنة، وصحيح مسلم، ١٠٣٧، و١٩٢٠، و١٩٢٣، الإيمان، وصحيح ابن حبان، (نسخة الإحسان، بتحقيق كمال يوسف الحوت، ١٤٠٧هـ)، ١/١٤٠، و ٨/ ٢٨٩، و٢٩٥.

(٨٤) أي وسط طريقهم، ومنه حديث: (قومٌ يركبون ثبج هذا البحر)، أي وسطه ومعظمه، يُنظر "النهاية في غريب الحديث والأثر"، لابن الأثير، ١/ ٢٠٦، "ثبج".

وأرجو أن لا يكون من هذه الأمة في الجنة إلى النبيّ ﷺ أقربَ من هذه الطائفة[٨٥]؛ لأن النبي ﷺ قال: (أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم عليّ صلاة)[٨٦]. وليس في هذه الأمّة طائفة أكثر صلاة على رسول الله ﷺ من هذه الطائفة؛ فهم على وجوههم في هذه الدنيا يهيمون، وبتعلم السنن ينعمون، وعلى حسن الاستقامة يدورون، وأهلَ الزيغ والآراء يقمعون، وعلى السداد في السنة يموتون، وعلى الخيرات في العُقبى يَقْدمون، أولئك حزب الله، ألا إن حزب الله هم المفلحون"[٨٧].

وقال الإمام أبو حاتم ابن حبان بعد أن ذكر حديث ابن عباس عن النبي ﷺ: (لا تأخذوا العلم إلا ممن تجيزون شهادته): "هذا خبر باطل رفعه، وإنما هو قول ابن عباس، فرفعه حفص بن عمر هذا، ولسنا نستجيز أن نحتج بخبرٍ لا يصح من جهة النقل في شيء من كتبنا، ولأن فيما يصح من الأخبار بحمد الله ومنِّه [ما] يغني عن الاحتجاج في الدين بما لا يصح منها، ولو لم يكن الإسناد وطلب هذه الطائفة له لظهر في هذه الأمة من تبديل الدين ما ظهر في سائر الأمم، وذاك أنه لم يكن أمة لنبي قط حَفِظت عليه الدين عن التبديل ما حفظت هذه الأمة، حتى

(٨٥) أيْ طائفة المحدثين، وقد أشار إلى هذا المعنى في صحيحه (نسخة الإحسان)، ١٣٣/٢، رقم ٩٠٨. حيث قال: "في هذا الخبر دليل على أنّ أَوْلى الناس برسول الله ﷺ في يوم القيامة يكون أصحاب الحديث؛ إذ ليس مِن هذه الأمّة قومٌ أكثرَ صلاةً عليه ﷺ منهم".

(٨٦) أخرجه الترمذي ٤٨٤، أبواب الصلاة، ٣٥٤/٢، وقال: "هذا حديث حسن غريب"، وابن حبان في صحيحه، ٩٠٨، ١٣٣/٢، وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي برقم ٤٨٨.

(٨٧) المجروحين، لابن حبان: ٨٩/١.

لا يتهيأ أن يزاد في سنةٍ من سنن رسول الله ﷺ أَلفٌ ولا واو، كما لا يتهيأ زيادة مثله في القرآن، فَحَفِظت هذه الطائفة السنن على المسلمين، وكَثُرَتْ عنايتهم بأمر الدين، ولولاهم لقال من شاء بما شاء"[٨٨].

وقال الإمام أبو حاتم ابن حبان، أيضاً: "ثم أَخَذَ عن هؤلاء مسلك الانتقاد في الأخبار، وانتقاء الرجال في الآثار، جماعة منهم: محمد بن يحيى الذهلي النيسابوري، وعبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، وأبو زرعة عبيد الله بن عبد الكريم بن يزيد الرازي، ومحمد بن إسماعيل الجعفي البخاري، ومسلم بن الحجاج النيسابوري، وأبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، في جماعة من أقرانهم، وأمعنوا في الحفظ، وأكثروا في الكتابة، وأفرطوا في الرحلة.

وواظبوا على السنة والمذاكرة والتصنيف والمدارسة، حتى أخذ عنهم من نشأ بعدهم من شيوخنا هذا المذهب، وسلكوا هذا المسلك.

حتى إن أحدهم لو سئل عن عدد الأحرف في السنن لكل سُنّة منها عدّها عدّاً، ولو زيد فيها أَلِفٌ، أو واوٌ لأخرجها طوعاً ولأظهرها ديانة، ولولاهم لَدَرَسَت الآثار واضْمَحلّت الأخبار، وعلا أهل الضلالة والهوى، وارتفع أهل البدع والعماء، فهم لأهل البدع قامعون، بالسنن شأْنُهم دامغون.

حتى إذا قال وكيع بن الجراح: حدثنا النضر عن عكرمة: مَيِّزوا حديث النضر بن عربي من النضر الخزاز، أحدهما ضعيف والآخر ثقة، وقد رَويا جميعاً عن عكرمة، وروى وكيع عنهما.

---

(٨٨) المجروحين، لابن حبان، ١/٢٥.

وحتى إذا قال حفص بن غياث: حدثنا أشعث عن الحسن، مَيَّزوا حديث أشعث بن عبد الملك من أشعث بن سوَّار، وأحدهما ثقة والآخر ضعيف، وقد رَويا جميعاً عن الحسن، وروى عنهما حفص بن غياث.

وحتى إذا قال عبد الرزاق: حدثنا عبيد الله عن نافع، وعبد الله عن نافع، مَيَّزوا حديث هذا من حديث ذاك، لأن أحدهما ثقة والآخر ضعيف، فإن أسقط مِن اسم عبيد الله "ياءً" علموا أنه من حديث عبد الله بن عمر، وإذا زيد في اسم عبد الله "ياء" قالوا: هذا من حديث عبيد الله بن عمر، حتى خلّصوا الصحيح من السقيم.

وإذا قال ابن أبي عدي: حدثنا شعبة عن قتادة، وحدثنا سعيد عن قتادة، فإذا الْتَزَقَ طرف الدال في بعض الكتب حتى يصير سعيدٌ شعبةً، خلّصوه، وقالوا: ليس هذا من حديث شعبة، إنما هو لسعيد، وإن انفتح من الهاء فَرجة حتى صار شعبة سعيداً ميزوه، وقالوا: ليس هذا من حديث سعيد، هذا من حديث شعبة.

وإذا كان الحديث عند ابن أبي عدي، ويزيد بن زريع، وغُندر، عن سعيد وشعبة جميعاً عن قتادة مَيَّزوه، حتى خلّصوا ما عند يزيد بن زريع عن سعيد عن قتادة، مما عند غندر عن شعبة عن قتادة، لأن سعيداً اختلط في آخر عمره؛ فليس حديث المتأخرين عنه بمستقيم، وشعبة إمام متقن، ما اختلط ولا تغير.

وإذا قال عبيد الله بن موسى: حدثنا سفيان عن منصور، وحدثنا شيبان عن منصور، ميزوا بين ما انفرد الثوري عن منصور وبين ما انفرد شيبان عن منصور، حتى إذا صَغُرت الفاء من سفيان في الكتابة واشتَبَهَتْ بِشَيْبان مَيَّزوا، وقالوا: هذا من حديث سفيان، لا شيبان، وإذا عَظُمت الياء من شيبان حتى

صار شبيهاً بسفيان قالوا: هذا من حديث شيبان، لا سفيان، ومَيَّزوا بين ما روى عبيد الله بن موسى عن شيبان عن معمر، وبين ما روى عن سفيان عن معمر في أشباه هذا مما يكثر ذكره.

ومن كانت همته في هذا الشأن، ومواظبته على هذه الصناعة بحسب ما ذكرت لم ينكر لواحد منهم أن يجرح الضعيف ويقدح في الواهي من الرواة والمحدثين، ومَن لم يطلب العلم من مَظَانّه ولا دار في الحقيقة على أطرافه يعيبهم إذا قالوا: فلان ضعيف، وفلان ليس بشيء لجهلهم بصناعة الأخبار، وقلة معرفتهم بالطرق للآثار، ولو أنهم وفقوا لإصابة الحق علموا أن السنة تُصَرِّح بإباحة ما ذهبوا إليه من الإطلاق على من صح عندهم الجرح والقدح"(٨٩).

وقال الإمام الذهبي عن القاضي أبي عبد الله محمد بن عبد الله المروزي:

"وَلِيَ قضاء القُضاة بنيسابور في سنة ثمان وثلاث مئة، إلى أن استعفَى سنة إحدى عشرة، وردَّ خريطَة الحُكم إلى الرئيس أبي الفضلِ البَلْعَميِّ، فما شرب لأحد ماءً، ولا ظُفرَ له بزلَّة، وكان لا يدعُ سماعَ الحديث أيامَ قضائه، ويحضر مجلسَ أبي العبّاس السَّراج"(٩٠). وفي هذا دلالةٌ على شدّة العناية بالحديث، وشدة الحرص على سماعه، فلم يَشغله عنه ما كان فيه مِن منصب القضاء! وهذا بغضّ النظر عن مدى مكانته في الحديث؛ إذْ هذا المسلك منه يكفينا، رحمه الله تعالى.

---

(٨٩) المجروحين، لابن حبان، ١/٥٧-٦٠، بعد تصحيح الأخطاء الواقعة في النص.

(٩٠) سير أعلام النبلاء، للذهبيّ، ("نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء"): ١٠٦٠/٢.

خبرتُهم وتأهّلُهم لأداء مهمّتهم:

- قال نعيم بن حماد: قلت لعبد الرحمن بن مهدي: كيف تعرف الكذاب؟
فقال: كما يعرف الطبيبُ المجنونَ(٩١).

وقال عبد الله بن محمد الأنصاري الهروي: "ينبغي لصاحب الحديث أن يكون سريع القراءة، سريع النسخ، سريع المشي، وقد جمع الله هذه الخصال في هذا الشاب، وأشار إلى محمد بن طاهر المقدسي، وكان قاعداً بين يديه"(٩٢).

من أخلاقهم في الرواية:

- "قال علي بن خشرم: سمعت وكيعاً(٩٣) يقول: لا يَكْمُلُ الرجُلُ حتى يكتبَ عمّن هو فوقَه وعمَّن هو مثله، وعمن هو دونه" (٩٤).

سَعَةُ حفظِهم:

- "وقال إسحاق بن راهويه: حفظي وحفظ ابن المبارك تكلفٌ، وحفْظ وكيع أَصْليٌّ؛ قام وكيع يوماً قائماً، ووضع يده على الحائط ، وحدّث سبع مئة

(٩١) تهذيب السير: ٧٠٥.

(٩٢) سير أعلام النبلاء، ٣٦٦/١٩.

(٩٣) هو وكيع بن الجرّاح بن مليح، ١٢٩-١٩٧هـ، قال عنه الذهبي: "وكان من بحور العلم وأئمة الحفظ". ترجمَتُهُ في سير أعلام النبلاء: ١٤٠/٩- ١٦٨. ومَن وَقف على ترجمته عَرف قدره.

(٩٤) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء: ٧٠٠. وهذا القول قد أورده الذهبي في سير أعلام النبلاء، ١٥٩/٩، مصرِّحاً فيه علي بن خشرم بالسماع، كما ترى-وهو ثقةٌ- ولم يُعَلِّق عليه بتضعيفٍ كما هي عادته في التعليق على الروايات التي لا تصحّ عنده.

حديث حفظاً"[٩٥].

- "قال علي بن خشرم: ما رأيت بيد وكيعٍ كتاباً قط، إنما هو حفظٌ؛ فسألته عن أدوية الحفظ، فقال: إن علّمتُك الدواء استعملتَه؟. قلتُ: إي والله. قال: ترْك المعاصي، ما جرّبتُ مثله للحفظ"[٩٦].

- قال الإمام الذهبي في ترجمة عبد الله بن وهب بن مسلم الحافظ شيخ الإسلام: "قلت: أكثرَ في تواليفه من المقاطيع والمعضلات، وأكثر عن ابن سمعان[٩٧] وبابَتِه، وقد تَمَعْقَلَ بعضُ الأئمة على ابن وهب في أخذه للحديث، وأنه كان يترخص في الأخذ، وسواء ترخص، ورأى ذلك سائغاً، أو تشدَّد، فمن يروي مئة ألف حديث، ويَنْدُرُ المنكَرُ في سعةِ ما روى فإليه المنتهى في الإتقان"[٩٨].

قلتُ: المقصود مِن هذا بيان سعةِ الحفظ عند هذا الإمام الجهبَذ، وأمّا هذا الذي استدركه عليه الإمام الذهبي مِن روايته للأحاديث المنقطعة والمعضلة وعن غير الثقات فإنّ بيانه هنا مِن قبيل الإنصاف والموضوعيةِ معاً؛ فهو يَذْكر النقدَ إلى جانب الثناء عليه والشهادة الغالية له هذه، ومَن أراد أن يَعْرِف قدْر هذا الإمام فعليه بالرجوع إلى ترجمته، على سبيل المثال، في سير أعلام النبلاء![٩٩].

---

(٩٥) الجرح والتعديل (تقْدمته)، ٢٢١، ونحوه في: نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء: ٦٩٩.

(٩٦) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء: ٦٩٨.

(٩٧) هو: عبد الله بن زياد بن سمعان المدني، ضعّفه بعضهم، ورماه بعض بالكذب، وقال بعضهم بأنه متروك. تُنظر ترجمته في "تهذيب الكمال، ١٤/ ٥٣١، و"تهذيب التهذيب"، ٢/ ٢٣٦-٢٣٨.

(٩٨) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء: ٧٠٧-٧٠٨.

(٩٩) سير أعلام النبلاء: ٩/ ٢٢٣-٢٣٤.

- "قال أبو أحمد حُسَيْنَك: سمعت إمام الأئمة أبا بكر يَحكي عن عليّ بن خَشْرَم، عن ابن راهويه، أنه قال: أحفظ سبعين ألف حديث، فقلت لابن خزيمة: كم يحفظ الشيخ؟ فضربني على رأسي، وقال: ما أكثَرَ فضولَك! ثم قال: يا بُني! ما كتبتُ سوداء في بياض إلا وأنا أعرفه"(١٠٠).
- وهذا أحمد ابن الفرات بن خالد الضبي أبو مسعود الرازي الحافظ أحد الأعلام، قال: "كتبت ألف ألف وخمسمائة ألف"(١٠١).

وفي تهذيب التهذيب: "قال إبراهيم بن محمد الطَّيّان: سمعت أبا مسعود يقول: كتبتُ عن ألفٍ وسبع مئة وخمسين رجلاً، أدخلتُ في تصنيفي ثلاث مائة وعشرة، وعَطَّلْتُ سائرَ ذلك"(١٠٢).

وقال ابن حجر أيضاً: "وذكره ابن حِبَّان في "الثقات" وقال: كان ممن رحل وجمع وصَنَّف وحَفِظ وذَاكر وواظبَ على لزوم السنن والذَّبَّ عنها. ثم أَسنَدَ عن أبي بكر بن أبي شيبة أنه قال: أحفظُ من رأيتُ في الدُّنيا ثلاثةٌ: أبو مسعود، وأبو زُرْعَة، وابنُ وَارَة. وحدَّث عنه شَيْخُهُ عبدُ الرزاق، وكان أبو مسعود يقول: إنه كان يكرِّر عليَّ كلَّ حديثٍ خمس مئة مرة"(١٠٣).

---

(١٠٠) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء: ١٠٤٩.

(١٠١) خلاصة تذهيب تهذيب الكمال، ١١/١.

(١٠٢) تهذيب التهذيب، ٤٠/١.

(١٠٣) تهذيب التهذيب، ٤٠/١.

حِرْصهم على الحديث الواحد:

في ترجمة عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي الإمام، قال الذهبي:

"ومن حديثه: (عبد الله الدارمي)، حدثنا يحيى بن حسان، حدثنا سليمان بن بلال، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، عن النبي ﷺ، قال: (نِعم الإدام الخلُّ).

هذا حديثٌ صحيح غريب فردٌ على شرط الشيخين، وانفرد مسلم به، ورواه أيضاً أبو عيسى في "جامعه" كلاهما عن أبي محمد الدارمي.

وقد كان الدارمي يُقصَد في رواية هذا الحديث لتفرُّده به، قال: فكان يُدَقُّ عليَّ الباب وأنا ببغداد، فأقول: مَنْ ذا؟، فيقال: يحيى بن حسان: نِعم الإدام الخلّ[١٠٤]".



(١٠٤) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء: ٨٨٥. وانظر: رحلاتهم وتضحياتهم في طلب الحديث، من هذا البحث. والحديث أخرجه مسلمٌ برقم ٢٠٥١، عن عائشة بلفظ: (نِعْم الأُدُمُ، أو الإدامُ الخلُّ)، وفي لفظٍ عنده: (نِعْمَ الأُدُمُ)، (بدون شكٍّ)،. وفي لفظٍ عنده، عن جابر بن عبد الله، بالتكرار (نِعْمَ الأُدُمُ الخل، نِعْمَ الأُدُمُ الخل)، وأخرجه غيره.

المطلب الثاني: من أقوالهم عن مهمتهم:

"قال نعيم بن حماد: كان ابن المبارك يكثر الجلوس في بيته، فقيل له: ألا تستوحش؟ فقال: كيف أستوحش وأنا مع النبي ﷺ وأصحابه؟!"(١٠٥)

قال يحيى بن محمد الذهلي: "دخلتُ على أبي في الصيف الصائف وقت القائلة، وهو في بيتِ كتبه(١٠٦)، وبين يديه السراج، وهو يُصَنِّفُ، فقلت: يا أبتِ! هذا وقت الصلاة، ودخان هذا السراج بالنهار، فلو نَفَّستَ عن نفسك. قال: يا بُنيّ! تقول لي هذا، وأنا مع رسول الله ﷺ وأصحابه والتابعين!! "(١٠٧).

وقال الإمام الدارقطني: "يا أهل بغداد! لا تظنوا أن أحداً منكم يَقْدِرُ أن يكذب على رسول الله ﷺ وأنا حيّ"!(١٠٨).

ومن أقوالهم عن محابرهم، التي تكاد تكون هي شعارهم، ووسيلتهم لأداء مهمتهم ما قد قاله قائلهم: "مع المحبرة إلى المقبرة"!(١٠٩).

وقال سهل بن عبد الله التُّسْتَرِيّ -ورأى أصحاب الحديث-: "اجهدوا أن لا تَلْقَوُا الله إلا ومعكم المحابر"(١١٠).

وسُئل سهلٌ: إلى متى يَكتب الرجل الحديث؟.

---

(١٠٥) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء:٦٥٤.

(١٠٦) أي مكتبته.

(١٠٧) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء: ٨٨٨ .

(١٠٨) الموضوعات، لابن الجوزي، ٢١/١.

(١٠٩) الأداب الشرعية، لابن مفلح، ٥٨/٢.

(١١٠) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء:٩٨٠.

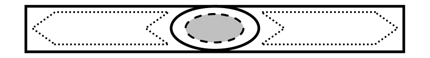
قال: حتى يموت، ويُصَبَّ باقي حبره في قبره"![١١١].

وقال عبد الله بن المبارك: "الحبر في ثوب الرجل خَلوق العلماء"[١١٢].

وقال إبراهيم النخعيّ: "من المروءة أن يُرى في ثوب الرجل وشفتيه مدادٌ"![١١٣].

وهذا ليس على إطلاقه، بل قاله -رحمه الله تعالى- تسليةً لمن رآه على هذه الحال، والله أعلم؛ فهو هزلٌ في صورة جدٍّ، أو جدٌّ في صورة هزْل[١١٤].

- قال محمد بن علي بن طاهر: "كُنت يوماً أقرأ على أبي إسحاق الحبَّال جزءاً فجاءني رجلٌ من أهل بلدي، وأسرَّ إليّ كلاماً قال فيه: إن أخاك قد وصل من الشام، وذلك بعدَ دخول الترك بيت المقدس، وقتل الناس بها، فأخذتُ في القراءة، فاختلطت عليَّ السطور، و لم يُمكني أقرأ، فقال أبو إسحاق: ما لك؟ قُلتَ: خير، قال: لابُدَّ أن تُخبرني، فأخبرتُه، فقال: وكم لك لم تر أخاك؟ قلتُ: سنين، قال: ولِمَ لا تذهبُ إليه؟ قلت: حتى أُتِمَّ الجزءَ، قال: ما أعظمَ حرصَكم يا أهل الحديث، قد تَمَّ المجلس، وصلّى الله على محمد. وانصرف"[١١٥].



(١١١) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء: ٩٨٠.

(١١٢) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء: ٦٥٨.

(١١٣) مقدّمة ابن الصلاح: ص١٧٩، تحت "النوع الخامس والعشرون: في كتابة الحديث وكيفية ضبط الكتاب وتقييده"، وهو عند القاضي عياض، في "الإلماع"، بتحقيق السيد صقر، ١٧٣، وعند غيرهما.

(١١٤) وإنْ لم يتنبّه لهذا المغزى ابن الصلاح، على ما يبدو، فعلّق على قول النخعيّ هذا بقوله: "ومِن أغربها -مع أنه أسلمها..." إلى آخره؛ فحَمَله على الجدّ.

(١١٥) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء: ١٣٦٢/٣.

المطلب الثالث: عناوين تَرْوِي الحقيقة

مما يُعرِّفُك بجهود أولئك الصالحين الأفاضل من محدِّثي هذه الأمة تجاه ميراث النبوة، أن تقِف على عناوين رائعة تدل على: صفاتهم، وأخلاقهم، ومنهجهم، وجهودهم. تلك العناوين التي يمكن أن يعبِّر بها أيٌّ مطّلع على واقعهم دون تكلّفٍ في تلك العناوين أو تزويق.

فمن العناوين التي تَرْوِي الحقيقة ما تقِف عليه في تاريخهم من نحو العناوين التاليــة:

- تحمُّلهم شَظَفَ الحياة وشدّتها في طلب الحديث.
- سعة حفظهم، وأخبارهم في ذلك.
- تفرُّغ بعضهم للحديث.
- جهودهم في التأليف وأحوالهم العجيبة في هذا الباب.
- تسلسل الأبناء والآباء منهم في التعاقب على هذه المهمة الشريفة.
- دقتهم وتوثقهم.
- رجوع أحدهم عن الخطأ إذا تبين له بغضّ النظر عن سِنٍّ من نبهه أو حالــه.
- نفقاتهم في هذا الشأن.
- رحلاتهم.
- دروسهم ومجالسهم واختباراتهم.
- صرامتهم في نقد الرواة والمرويات دون مجاملة لقريب أو بعيد.

- حرصهم على سماع الحديث وإسماعه، وعلى لقاء الشيوخ للأخذ عنهم، حتى إنهم قد يُعَزّون من يفوته السماع من شيخٍ لوفاته.
- كثرة عدد الحاضرين لبعض مجالس التحديث والإملاء.
- منهجهم ودقتهم فيه.
- تعبدهم لله تعالى بالحديث وعملهم به.
- أخلاقهم وتعلقهم بالفضائل.



المبحث الثاني
إحصاءاتٌ تَرْوِي الحقيقة

تمهيـــــد:

ومما يعرّفك أيضاً بجهود أولئك الأماثل الأفاضل مِن الأسلاف الصالحين مِن محدّثي هذه الأمة، الاطلاع على طَرَفٍ مِن الإحصاءات التالية:

- أن تقف على طرف، ولو مختصرٍ، من الإحصاءات التي تروي لك الحقيقة عن حالهم في العناية بتراث النبوة الخاتمة ومحافظتهم عليه.

ومن هذه الإحصاءات مثلاً:

- حصْر (أنموذج) لعددِ شيوخ بعضهم وعدد تلاميذهم، ومعرفة أعلى ما عُدّ من ذلك، وتصوُّر كم يتكرر هذا الأنموذج في البلدان والأزمان في تاريخ الإسلام، فإن هذا يُبْرِز مبلغ عنايتهم برواية الحديث وسماعه وإسماعه.
- حصْر أنواع مؤلفاهم وأسمائها.
- حصْر عدد مؤلفاهم، وعدد مؤلفات المكثر منهم.
- حصْر عدد أوراق مؤلفاهم وصفحاها، وما كتبه الواحد المكثر منهم من الصفحات.
- حصْر عدد الأحاديث التي رواها المكثر منهم.
- حصْر عدد الأحاديث التي حفظها بعض الأئمة.
- حصْر عدد المجالس التي كان يعقدها بعض الأئمة في اليوم ومعدَّلها.
- حصْرٌ لمقدار ما قرأه بعض الأئمة، والوقوف على الكمية المدهشة من ذلك.

إنّ مثْل هذه الإحصاءات عن جهود بعضهم تُوقفنا على حالهم وجهودهم وعلى تصوُّر التاريخ كيف كان، وذلك عن طريق تَخيّلِ كم يتكرر هذا الأُنموذج بالنظر إلى تاريخهم.

وإنّ مثْل هذه الإحصاءات الدقيقة تتكلم فيها الأرقام عن الواقع، وعند التثبت في تحديد هذه الأرقام فإنه لا مجال للعاطفة الجامحة عندئذ.

وإليك بعضاً من هذه الإحصاءات في المطالِب التالية، بحسب ما يتيسر لي منها الآن.

الفرع الأول: توطئة عن مؤلفاتهم في الحديث:

لقد تعددتْ مؤلفات المحدثين في الحديث وعلومه ومصطلحه، وتفننوا فيها وفي موضوعاتها وفي طرائق تصنيفها وترتيبها، وفي توثيقها. كل ذلك خدمةً لثلاثة أهداف أساسية، هي:

- توثيق الرواية عن النبي ﷺ وحفْظها من الضياع أو التحريف.
- العمل بحديث رسول الله ﷺ، والتعبد لله به.
- نشْرُ حديث رسول الله ﷺ، وتقديمه للناس، وتعليمهم إياه بمختلف الطرق والوسائل الصحيحة الممكنة.

وقد تميّزتْ مؤلفاتهم في الحديث بأنها مؤلفاتُ روايةٍ، تَعتمد على السند، وأنّ الأصل فيها أنّ المؤلِّف يَذْكر فيها الأحاديث بالسند المتصل مِنه إلى رسول الله ﷺ، وأن المؤلِّف نفسه راوٍ من رواة كل حديث يَذكره في كتابه عن رسول الله، فليس هو غريباً عن الرواية، بل هو أحد الرواة في سلسلة السند!.

ولقد يندهش كلُّ ذي عقلٍ يطّلع على كتبهم، ومكتباهم، وجهودهم فيها، وكذلك على قيمتها عندهم.

الفرع الثاني: نُبْذة عن أنواع مؤلفاهم وعددِها:

ما أنواع مؤلفاهم؟

الجواب هو: إنّ أنواع مؤلفاهم في الحديث متعددة، قد لا يأتي عليها الحصر الدقيق، وقد سمّوا كلَّ نوعٍ باسم أو أسماء تدلُّ عليه.

وسأذْكر سرداً سريعاً لأسماء وعناوين مؤلفاهم في حديث رسول اللهﷺ.

فمِن تلك الأسماء التي أطلقوها على مؤلفاهم ما يلي:

- الصحيفة.
- الجزء.
- الكتاب.
- السنن.
- السنة.
- الجامع.
- الصحيح.
- المصَنَّف.
- المستخرج.
- المستدرَك.
- المسنَد.

- الفوائد الحديثية.
- الأفراد.
- الناسخ والمنسوخ من القرآن أو الحديث؛ وهو ما جاء من الروايات في ذلك بأسانيدها.
- التفسير المأثور؛ وهو ما جاء من الروايات المرفوعة والموقوفة والمقطوعة في التفسير.
- المراسيل.
- العلل .
- الأحاديث القدسية.
- الشمائل النبوية والمغازي والسير، المروية بالأسانيد.
- كُتب المصاحف والقراءات، المذكورة فيها الروايات بأسانيدها.
- عِلْم مختلف الحديث، وما يسوقه المؤلفون فيه من روايات.
- الخصائص المحمدية، التي ذُكرتْ فيها الروايات بأسانيدها.
- الأحاديث المتواترة.
- الأحاديث المشهورة على الألسنة.
- كُتب التخريج بمختلف أنواعها.
- الموضوعات.
- الأمالي.
- العوالي.
- كُتب الزوائد.

- كُتب الجمع لأحاديث عدد من الكتب.
- كُتب التاريخ التي تسوق الروايات بأسانيدها.

إلى غير ذلك من عناوين مؤلفاتهم في الحديث ومجالاتها.

وتحت كلِّ نوعٍ من هذه الأنواع عددٌ يُمْكن حصره، أو لا يُمكن حصره، من المؤلفات.

ولك أن تتصور هذا العدد الهائل، وكم في كل نوعٍ من أنواع مؤلفاتهم من المجلدات والأوراق! وكم أنفقوا فيها من الجهود والهمم والبحث والدرس، والأوقات والأعمار!.

وقد بلغت الكثرة بكتب الإسلام أن ألف فيها المؤلفون الكتبَ المتخصصة بذكر أسمائها، ومؤلفيها، وأسانيد رواياتها عن مؤلفيها، ومِن أهم كتب الإسلام وأكثرها كثرةً المؤلفات في حديث رسول اللهﷺ وعلومه ومصطلحه.

ومِن هذا النوع من المصنفات التي تخصصت في بيان كتب الإسلام ما يلي:

- فهرست ابن خير الإشبيلي ٥٠٢-٥٧٥هـ.

وهو ما رواه عن شيوخه من الدواوين المصنفة في ضروب العلم وأنواع المعارف. وجلُّها من كتب الرواية والحديث. وقد جاء الكتاب في نحو ٤٦٠صفحة!!

- أبجد العلوم، لصديق بن حسن القنوجي، ت ١٣٠٧هـ ١٨٨٩م، في ثلاثة مجلدات.

وقد ذكر جملة وافرة من المؤلفات، وكثير منها في الحديث.

- "الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المشرَّفة "، لمحمد بن جعفر

الكتاني-ت١٣٤٥هـ. في نحو ٢٢٢ صفحة.

وقد ذكر ما وقف عليه من مشهور هذه الكتب فعدّ نحو ١٧٢٥كتاباً،(ألف وسبع مئة وخمسة وعشرين). مع أنه لم يستقص، وبعض هذه الكتب أجزاء حديثية، وبعضها عشرات المجلدات، في آلاف الأوراق.

-كتب الفهارس والمَشْيَخات والمعاجم والأثبات والإجازات. ويَصْعب حصْرها. وقد اشتملت هذه على كثير من أسماء الكتب والشيوخ.

وقد اعتنى المحدِّثون بتدوين هذا النوع من الكتب، الذي ضمّنوه أسماء شيوخهم ومروياتهم؛ فكتبَ كثير من المحدثين لنفسه ثبتاً أو معجماً أو معاجم أو مشيخة أو مشيخات أو فهارس، دوّن فيها أسماء شيوخه، وأسماء الكتب التي أخذها عنهم ومروياته عنهم.

وذَكَر صاحب "فهرس الفهارس" - وهو الشيخ عبد الحي الكتاني- جملةً وافرة من هذا النوع من الكتب، ولم يستقص ولم يُرِد الاستقصاء.

وينبغي أن يكون معلوماً أن هذه الإحصاءات، وهذا العدد المذكور من الكتب أقل مما كتبه علماء الإسلام، ولاسيما المحدِّثون منهم ؛ فإنك لو جمعت مؤلفات خمسين شخصاً فقط ممن كتبوا أربعين كتاباً؛ لكانت ألفي كتاب! فكيف بالباقي!.

بل ينبغي أن تتذكر أن عدداً من العلماء ذُكر له من المؤلفات خمس مئة كتابٍ، بين صغير وكبير، ومنهم من ذُكر له ثلاث مئة، ومنهم من ذُكر له مئة كتاب إلى غير ذلك من الأعداد.

وإنه لمن الصعب الحصر الدقيق للموجود من مصنّفاتهم في مجال الحديث أو

في سواه؛ فكيف لو أدخلنا في التقدير المفقودَ من مؤلفاهم، علماً بأن المفقود من مؤلفاهم على قسمين:

قِسْمٌ مذكور في الفهارس السابق ذكرها.

وقِسْمٌ غير مذكورٍ فيها، ولا نعرفُ عنه شيئاً.

ومعلومٌ ما قيل عن اصطباغ نهر الفرات من حِبْر مؤلفات المسلمين التي أغرقها التتار في حربهم مع المسلمين!.

الفرع الثالث: نبذة تقريبية عن عدد أوراق مؤلفاهم:

لاشك في أننا لن نقدر قدر ما كتبه أسلافنا الصالحون المحدِّثون من أوراق، وما بذلوه فيها: من أقلام، وحبر، وجهد، ورحلات، وأوقات، وما أرخصوه من مهج وأرواح؛ فإنه لا يَقْدر قَدْر ذلك كله إلا الله سبحانه، وكلٌّ ذلك عند ربي في كتابٍ، لا يَضِلُّ ربّي ولا ينسى!.

ولقد رغبْتُ في تصوُّرِ ما كتبه أولئك الأئمة الأطهار من أوراق عن الحديث وعلومه، فلم أَجِدْ لهذا مجالاً ولا حيلة، فعمدت إلى استخلاص تصورٍ جزئي تقريبيٍ، فانتهيتُ إلى فكرةِ إحصاءِ عددِ صفحات بعض مؤلفات الحديث؛ لأرى كيف تكون النتيجة.

فكان الأمر كالآتي:

عددت صفحاتِ: الكتب الستة المطبوعة، ومسند الإمام أحمد، ومستدرك الحاكم، والسنن الكبرى للبيهقي، والمصنف لعبد الرزاق، وموطأ الإمام مالك بروايةٍ من رواياته، والموجود من المعجم الكبير للطبراني، والفتح الرباني بترتيب

مسند الإمام أحمد، وجامع الأصول، فبلغت حوالي ٥٥٦٠٠ (خمسة وخمسين ألفاً وست مئة صفحة)، هذا عدا فهارس كثيرٍ منها.

وعددت صفحات: "فتح الباري بشرح صحيح البخاري"، لابن حجر، و"عمدة القاري شرح صحيح البخاري" للعيني، وشرح الكرمانيّ لصحيح البخاري، "وإرشاد الساري لشرح صحيح البخاري"، للقسطلاني - وبهامشه شرح النووي على صحيح الإمام مسلم - وتغليق التعليق، لابن حجر، وشرح النووي على صحيح مسلم، وبذْل المجهود في حل سنن أبي داود، وتحفة الأحوذي بشرح سنن الترمذي، وتحفة الأشراف بمعرفة الأطراف؛ فبلغ مجموع صفحاتها حوالي ٥٠٠٠٠ صفحة (خمسين ألف صفحة).

وتكمل هذه مع ما عددته من صفحات ما سبق من كتب المتون ١٠٥١٦٠مئة ألف صفحة وخمسة آلاف ومئتي صفحة تقريباً، هذا عدا فهارس كثيرٍ منها لم أُدخلها في العدد.

هذا مع أن هذا الإحصاء إنما هو لبعض كتب متون الحديث وبعض كتب شروحها؛ وما بقي كثير وكثير جداً، لا أزعم بأنني أتمكن من حصره!.

وكيف لو أدخلنا في هذا الإحصاء كتب الرجال والتاريخ والجرح والتعديل بمختلف أنواعها؟! على أن من الصعب حصرها؛ لكثرتها.

وكيف لو أدخلنا في هذا الإحصاء كتب علوم الحديث ومصطلحه وسائر أنواع علوم الحديث!.

وقد أخذتُ عَيّنةً من المؤلفات في التراجم، وهي كتابان فقط من كتب التراجم والجرح والتعديل، هما:

١- "سير أعلام النبلاء"، للإمام الحافظ الذهبيّ، وهو في ٢٥ مجلّداً بفهارسه، فبلغتْ صفحاته مع الفهارس١٥٣٢١ صفحة.

٢- "تهذيب الكمال" للحافظ المزّيّ، الطبعة المحققة في ٣٥ مجلداً، بلغت مجموع صفحاته: ٢٢٣٩٣ صفحة!!.

ومجموع صفحات الكتابين: ٣٧٧١٤ صفحة!!.

كتابان فقط مجموع صفحاتهما قد شارفَ الأربعين ألف صفحة، فكيف بالكتب الأخرى!!. على أن هذه المؤلفات بعد طباعتها قد أضيفت إليها حواشٍ كثيرة طوّلتها ليست هي من عمل المؤلف.

إنّ عجَبَنا لا ينقضي لو جاءنا خَبَرٌ عن شخصٍ نَسَخ بيده -مجرّد نَسْخٍ- كتاباً واحداً في حجم أَحَدِ هذين الكتابين؛ فكيف الحال، إذَنْ، بالنظر إلى اضطلاع شخصٍ واحد بتأليف مثل هذا الكتاب ونَسْخه معاً!!.

وكيف الحال، إذَنْ، بالنظر إلى أنّ ذلك المؤلِّف الإمام قد كَتب مؤلفات عديدة، وهذا واحدٌ منها، وفي مؤلفاته الأُخرى عِدّةُ مؤلفات قد لا تَقِلُّ عن هذا الكتاب؟! هل سنتّجه إلى الإنكار وتكذيب مثل هذه الأخبار؟! وماذا نصنع إذا كانت هذه المؤلفات موجودة مُشاهدةً تُكذِّبُ المُكَذِّبَ!.

هل سنتّجه إلى أن ذلك خارقٌ للعادة!

وما سِرُّ تَكَرُّرِ الظاهرة، فالمؤلفون مِن هذا الصِّنف كثيرون!.

أمْ سنتّجه إلى أنّ ذلك إعجازٌ مِن إعجازات هذا الدين فَخَصّه الله تعالى بجهود المُحدّثين، وخَصّهم به!!.

لقد حيّرتمونا أيها الأسلاف الصالحون مِن أئمة المحدّثين!

لقد حَيَّرتم أحفادكم في هذا الزمان الذي ماتت فيه الهمم، وقَعدتْ بأصحابها عن كل ما سِوى الأكل والشرب والنوم ومتاع الحياة الدنيا الفانية الزائلة!.

ولكن -بحمد الله- قد حَفِظ الله تلك الجهود المباركة تاريخاً وواقعاً يَعْبُرُ القرون الماضية، من عهود السلف الصالح إلى عصرنا الحاضر، وإلى ما شاء الله تعالى، لتبقى تلك المؤلفات والجهود شهوداً لله وللحق وللدِّين تَنْطِق بالحقيقة لا بالخيال، سواء صَدَّق المُصَدِّقون أمْ كَذَّب المُكذِّبون، ولتبقى منارات للعلم النافع، ومعالِمَ للهدى والنور وتَعْرِضَ نفسها -بل يَعْرِضها الله تعالى- لمن رَغِب في العلم والهدى والنور!.

فما أنتم صانعون أيها الأحفاد؟!.

الفرع الرابع: أمثلةٌ لمؤلفات بعض الأئمة:

أَذكُر فيما يلي عدداً مِن الأمثلة لمؤلفاتِ عددٍ مِن الأئمة؛ لعلَّها تكون مُذَكِّراً بالحقيقة ومُقَرِّباً لها.

مؤلفات الإمام العلامة أبو الوفاء علي بن عقيل البغدادي -ت٥١٣هـ:

قال عنه الذهبي: "الإمام العلامة البحر، علق كتاب الفنون وهو أَزْيَدُ من أربع مئة مجلد، حشد فيه كل ما كان يجري له مع الفضلاء والتلامذة. وما يسنح له من الدقائق والغوامض، وما يسمعه من العجائب والحوادث"(١١٦).

قلتُ: ما كان عليه أبو الوفاء مِن سعة العِلم، والحرص عليه، وبذْل هذا

(١١٦) سير أعلام النبلاء، للذهبي، ١٩/٤٤٣.

الجهد العظيم مثالٌ لجهود الأئمة في التأليف وتقييد العلم، هذا مع أنّ الرجل مذكورٌ بالفقه، لا بالحديث، لكن، كان في ضِمْن ما أوْدعه في كتابه هذا ما يتعلق بالحديث، وإنما أردتُ التمثيل به لِما أَسرني مِن هذه السيرة، على أنّ الرجل مذكور بالبدعة، رحمه الله، والله يعفو عنّا وعنه.

مؤلفات الإمام ابن عساكر –ت٥٧١هـ:

الإمام الحافظ محدّث الشام أبو القاسم الدمشقيّ، له من المؤلفات:

" تاريخ دمشق " في ثمان مئة جزء، قال الإمام الذهبي: "قلت: الجزء عشرون ورقة، فيكون ستة عشر ألف ورقة"[١١٧].

يا لله! هذا كتاب واحد في موضوع واحد!!

فرحِمَ الله يَدَيْنِ اشتغلتا بكتابة تلك الصحائف، وعَيْنَيْنِ أضاءتا لهما؛ فكتَبَتَا. كلُّ ذلك من أجْل هذا الدين، ومن أجْل حديث رسول رب العالمين!

وما بالك بمؤلفاته الأخرى؟!. يكفينا هذا منه!!.

مؤلِّفات الإمام عبد الغني المقدسي –ت٦٠٠هـ:

وهذا الإمام الحافظ عبد الغني بن عبد الواحد أبو محمد المقدسي (٥٤١–٦٠٠هـ).

قال الإمام الذهبي عنه:

"وكَتَبَ ما لا يوصف كثرة، ومازال ينسخ، ويصنف، ويحدّث، ويعبد الله حتى أتاه اليقين"[١١٨].

(١١٧) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء: ٣/ ١٤٥٥.

(١١٨) تذكرة الحفاظ: ١٣٧٣/٣.

وقال عنه الحافظ الضياء: "ضعف بصره من كثرة الكتابة والبكاء"[(١١٩)]!.

ومن مصنفات الحافظ عبد الغني المقدسي رحمه الله تعالى، كما ذكرها الذهبي[(١٢٠)]:

١-"المصباح" في ثمانية وأربعين جزءاً، مشتمل على أحاديث الصحيحين.

٢-كتاب "نهاية المراد" في السنن، نحو مئتي جزء لم يبيضه.

٣-كتاب "المواقيت"، مجلد.

٤-"الروضة"، أربعة أجزاء.

٥-"فضائل خير البرية"، مجلد.

٦-" الذكر"، جزءان.

٧-"الجهاد"، مجلد.

٨-"الإسراء"، جزءان.

٩-"التهجد"، جزءان.

١٠-"المحنة"، ثلاث أجزاء.

١١-"صلاة الأحياء على الأموات"، جزءان.

١٢-"الصفات"، جزءان.

١٣-"الفرح"، جزءان.

١٤-"فضل مكة"، جزءان.

١٥-"غنية الحفّاظ في مشكل الألفاظ"، مجلدان.

---

(١١٩) تذكرة الحفاظ: ١٣٧٤/٣.

(١٢٠) تذكرة الحفاظ: ١٣٧٤/٣.

16-"الحكايات"، أزيد من مئة جزء.

وقال الضياء أيضاً: "ومما ألفه بلا إسناد:

17-"العمدة"، جزءان.

18-"الأحكام"، ستة أجزاء.

19-"درر الأثر"، تسعة أجزاء.

20-"الكمال"، عشرة أجزاء"(121).

هذا عدا مؤلفات أخرى على جزءٍ واحد.

مؤلفات الإمام ابن جرير الطبري -ت310هـ(122):

1- كتاب التفسير.

2- كتاب التاريخ.

3- تاريخ الرجال من الصحابة والتابعين.

4- لطيف القول في أحكام شرائع الإسلام.

5- القراءات والتنـزيل والعدد.

6- اختلاف علماء الأمصار.

7- الخفيف في أحكام شرائع الإسلام.

8- التبصير.

9- تهذيب الآثار.

---

(121) تذكرة الحفاظ، 3/1374.

(122) انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبيّ، 14/282 وما بعدها.

١٠- البسيط.

١١- المحاضر والسجلات.

١٢- ترتيب العلماء.

١٣- المناسك.

١٤- شرح السنة.

١٥- المسند.

١٦- الفضائل.

مؤلفات الإمام الذهبي-ت٧٤٨هـ[١٢٣]:

١- التاريخ الكبير.

٢- التاريخ الأوسط.

٣- تاريخ الإسلام.

٤- سير أعلام النبلاء.

٥- تذهيب تهذيب الكمال.

٦- الكاشف.

٧- ميزان الاعتدال.

٨- المغني في الضعفاء.

٩- مختصر سنن البيهقي.

١٠- طبقات الحفاظ.

(١٢٣) طبقات السبكي، ٢١٦/٥، والوافي بالوفيات، ١٦٣/٢.

١١- مختصر الأطراف للمزي.

١٢- طبقات القراء الكبار.

١٣- الإعلام.

١٤- التجريد في أسماء الصحابة.

١٥- مختصر مستدرك الحاكم.

١٦- المجرد في أسماء رجال ابن ماجة.

١٧- مختصر تاريخ نيسابور للحاكم.

وممن كثرت مؤلفاتهم من أئمة الحديث كثرةً بالغة غير هؤلاء:

١- يحيى بن معين.

٢- ابن شاهين.

٣- النووي.

٤- السيوطي.

الفرع الخامس: من أقوالهم في مؤلفاتهم:

- قال الإمام الترمذيُّ عن كتابه (الجامع) وهو كتاب السنن: "صنّفتُ هذا الكتاب، وعَرَضتُه على علماء الحجاز، والعراق، وخراسان؛ فرضوا به، ومَن كان هذا الكتاب في بيته فكأنما في بيته نبيٌّ يتكلم"(١٢٤)!!. وعلّق الإمام الذهبيّ على هذا بقوله: "قلتُ: في "الجامع" علمٌ نافعٌ، وفوائد غزيرةٌ، ورؤوس المسائل، وهو أحدُ أصول الإسلام، لولا ما كدّره بأحاديثَ واهية، بعضها موضوع، وكثيرٌ منها في

(١٢٤) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء: ٩٦٩.

الفضائل"[١٢٥].

وقال أيضاً: "قلتُ: "جامعُهُ" قاضٍ له بإمامته وحفظه وفقهه، ولكن يَترخّصُ في قبول الأحاديث، ولا يُشدِّد، ونَفَسُهُ في التضعيف رَخْوٌ"[١٢٦].

- قال الحافظ الذهبيّ: "وكان الطبرانيُّ - فيما بَلَغَنا - يقول عن "الأوسط": هذا الكتاب رُوحي"[١٢٧]!!.

ومعجم الطبرانيّ الأوسط هذا صنّفه على أسماء مشايخه المكثرين، وذكَر فيه غرائب ما عنده عن كلِ واحد منهم مِن الروايات[١٢٨].

- قال الحافظ زكريا الساجيّ: "كتاب الله أصلُ الإسلام، وكتاب أبي داود عَهْدُ الإسلام"[١٢٩]!!.

- "قال يحيى بن معين: أخرج غُنْدَرُ إلينا ذات يوم جراباً فيه كتب، فقال: اجهَدُوا أن تُخرجوا فيها خطأ، قال: فما وجدنا فيه شيئاً، وكان يصوم يوماً، ويفطر يوماً منذ خمسين سَنَة"[١٣٠].

- وكان سعيد بن محمد بن صبيح بن الحداد المغربي يقول: "دليلُ الضبط الإقلال، ودليل التقصير الإكثار، وكان من رؤوس السنَّة"[١٣١].

(١٢٥) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء: ٩٦٩.

(١٢٦) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء: ٩٦٩.

(١٢٧) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء: ١١٥٥.

(١٢٨) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء: ١١٥٥.

(١٢٩) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء: ٢/٩٥٩.

(١٣٠) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء: ٢/٦٩٠.

(١٣١) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء: ٢/١٠٣٢.

- نقل الإمام الذهبي في شأن أبي الفرج ابن الجوزيّ عن الموفق عبداللطيف أنه قال: "وكانَ كثيرَ الغَلَطِ فيما يُصنِّفُه، فإنَّه كان يفرغُ من الكتابِ ولا يعتبره.
قلتُ: هكذا هو، له أوهامٌ وألوان من ترْك المراجعة، وأخْذ العلم من صحفٍ، وصنَّفَ شيئاً لو عاش عمراً ثانياً، لَمَا لَحِقَ أنْ يُحَرِّرَهُ ويُتْقِنَهُ"(١٣٢).
- "قال ابن أبي ذُهل: سمعتُ أبا العباس الدَّغولي يقول: أربع مجلدات لا تُفارقُني في السَّفر، والحَضَر، وإذا خرجتُ من البلد: كتاب المزني، وكتاب "العَين"، و"تاريخ البُخاري"، وكتاب "كليلة ودمنة""(١٣٣).

الفرع السادس: أهمية قراءة مؤلفاتهم هذه:

أما علمتَ أن بعض هذه المؤلفات قد مكثَ المؤلف في تأليفه سنين عدداً؟! فمنهم من أمضى في تأليف كتابٍ من كتبه عشرين سنة، ومنهم من أمضى أكثر من ذلك(١٣٤)، ثم أنت تَجدُهُ بينَ يديك مُرَاجَعاً مدقَّقاً سائغاً للقراءة والإفادة، ثم لعلك لا تُعيره منك نظرةً، ولا تخصه من عمرك بلحظة، كأنه لا يعنيك، وكأن مؤلفه استثناك من جملة مَن كتب لهم كتابه، فأي خسارة هذه!.

أَمَا تَعْلم أنك لو قرأت الكتاب الذي استغرق مؤلفه في تأليفه سنتين أو سنة

---

(١٣٢) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء: ١٥٠٦/٣.

(١٣٣) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء: ١٠٦٠/٢.

(١٣٤) مثل: فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني، ومقدمته: "هدي الساري مقدمة فتح الباري"، حيث استغرق في تأليف ذلك ما لا يقل عن ٢٥ عاماً، انظر: فتح الباري ٥٤٦/١٣، ومثل: الحافظ المزي، الذي استغرق في تأليف "تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف ستة وعشرين عاماً.

كاملة؛ فإنك بقراءتك له تختصر السنتين أو السنة وما بذله المؤلف فيها من جهدٍ في زمنِ قراءةِ الكتاب!

فكيف لو قرأتَ ما ألّفه مؤلفه في عشرين أو أربعين سنة؟!

أليست هذه زيادةً في عمرك، وإضافة تضيفها إليه؟!

فإلى متى ينام الزاهدون في العلم والهداية؟!

على أنه ما كل قارئ ينتفع بما قرأ، وما كل مَن وقف على ألفاظ أولئك الأئمة وآثارهم وأخبار أنفاسهم الطاهرة أفاد منها وانتفع، ولكن مَن طَهُرَتْ أنفاسه وأسلم للحق نفسَه.

ومَن لم يجاهِد نفسه في اتّباع الحق يَخْسَرْها في طريقِ الباطل!!.



المبحث الثالث

مظاهر عنايتهم بالسنة

المطلب الأول: إجمالٌ لمظاهر عنايتهم بالسنّة:

تَعدّدتْ مظاهر عناية المحدِّثين بسنّة النبيّ ﷺ، الأمر الذي يتناسقُ مع جهودهم المضنيةِ المضيئة، والفريدة-في الوقت نفسه-في هذا المجال، سواءٌ أكان ذلك كذلك في تاريخ الرجال، أم في تاريخ العناية بالعِلم والدِّين ونقْلهِما، لقد كانت جهوداً فريدةً قولاً وعملاً، عِلماً ومنهجاً!

ويُمكن إجمالُ مظاهر عنايتهم بالسنّة في العناوين التالية:

- حفظهم للحديث.
- التربية على الحديث وتعظيمه.
- حبُّ الرسول ﷺ وتعظيمه.
- تفرُّغ بعضِهم للحديث.
- حِرْصهم على سماعهم الحديث.
- حِرْصهم على إسماعهم الحديث.
- رحلاتهم في طلب الحديث.
- تأليفهم مختلف المؤلفات في الحديث.
- حبُّهمُ المحدِّثين مِن أجْلِ اشتغالهم بحديث رسول الله ﷺ.
- نقدهم للروايات والرواة.

- حرصهم على العمل بالحديث.
- تسلسل الأبناء مع الآباء في أداء هذه المهمة.
- أقوالهم المأثورة في هذا الشأن، وما تدلّ عليه مِن سموّ وعناية بحديث رسول الله ﷺ.
- قصصهم الرائعة في هذا الباب ودلالاتها المتعددة.
- اختلاط بعضهم لاحتراق كتبه، وذلك الاختلاط لأسبابٍ: منها شدةُ وَجْد بعضهم على كتبه.
- رجوع بعضهم عن خطئه عند تنبيهه له مهما كانت النتيجة ومهما كانت مكانة مَن نَبّهَهُ.
- إنفاقهم فيه كل غالٍ.

المطلب الثاني: رحلاتهم وتَضْحياتهم في طلب الحديث:

إنّ الحديث عن رحلاتهم لا يُمكنُ أن يأتِيَ على تصوير الحقيقة كما هي، كما أنّ ما نبذُلُهُ فيه من الوقت والجهد لا يُمكن أن يتناسب مع واقعِ حال رحلات المحدثين، تلك الرحلات المضنية الممتعة؛ ولكن حسبنا أن نقف على طَرَفٍ من الحقيقة في الأسطر التالية، من خلال أقلامهم والنقل عنهم رحمهم الله تعالى.

فمن ذلك: قول سعيد بن المسيب: "إنْ كنتُ لأسَيرُ الليالي والأيام، في طلب الحديث الواحد"[١٣٥].

---

(١٣٥) جامع بيان العلم وفضله، ١/٣٩٥.

وقال ابن عبدالبر:"رحل مسروق في حرفٍ، ورحل أبو سعيد في حرفٍ"[١٣٦].

ومن ذلك: قصة شعبة بن الحجاج في طلب حديثٍ واحد:

حدّث نصر بن حماد الوراق بحديثٍ على باب شعبة، فسمعه شعبة، فخرج ولطمه، ثم رجع، وبكى نصر وبيّن له شعبة أن هذا الإسناد خطأ؛ ثم ذكر له قصة رحلته من أجله إلى مكة ليلتقي بعبد الله بن عطاء، أحد رواة الحديث، فسأله عنه، ثم إلى المدينة ليسأل سعد بن إبراهيم، ثم إلى البصرة، ليسأل زياد بن مخراق. ولما تأكد من عدم صحة السند قال: دَمِّرْ على هذا الحديث، لو صحَّ لي مثل هذا عن رسول الله ﷺ كان أحبَّ إليَّ مِن أهلي ومالي والناس أجمعين.

فلله درُّك يا شعبة!!.

وأين هذا مِن الذين يرحلون اليوم ليفعلوا ويفعلوا... مما يسوؤهم في الدنيا وفي الآخرة، ويُسيء إلى غيرهم؟!.

وشتّان بين رَحَلاتِ المحدِّثين وبين رحلاتِ المُحْدِثين والمُحْدِثين!!.

أقول هذا على الرغم مِن عدم التأكد مِن صحة القصة، ولاسيما بالنظر إلى حال نصر بن حماد الورّاق[١٣٧]؛ لأن أَصل المعنى قد ثبت في مواضع أُخر، غير هذه القصة، كما هو معلوم.

ومِن ذلك ما ذكره أبو حاتم عن رحلاته وسَيْرِه في طلب الحديث:

فقد قال ابن أبي حاتم: "سمعت أبي يقول: أولُ سنة خرجتُ في طلب

---

(١٣٦) جامع بيان العلم وفضله، ٣٩٦/١.

(١٣٧) فقد تكلموا فيه، رماه عدد مِن الأئمة بالكذب، يُنظر، تهذيب التهذيب، ٤/ ٢١٧.

الحديث، أقمت سبع سنين، أحصيتُ ما مشيتُ على قدمي زيادة على ألف فرسخ"[١٣٨]. قال الذهبيّ: "قلتُ: مسافةُ ذلك نحو أربعة أشهر، سَيْرَ الجادّة"[١٣٩].

قال أبو حاتم: "ولم أَزَلْ أُحصي حتى لَمّا زاد على ألف فرسخٍ تركتُهُ، ما كنت سرتُ أنا مِن الكوفة إلى بغداد فما لا أُحصي كم مرةً، ومِن مكة على المدينة مراتٍ كثيرة، وخرجتُ مِن البحرين مِن قرب مدينة صلا إلى مصر ماشياً ومِن مصر إلى الرملة ماشياً، ومِن الرملة إلى بيت المقدس، ومِن الرملة إلى عسقلان، ومِن الرملة إلى طبرية، ومِن طبرية إلى دمشق، ومِن دمشق إلى حمص، ومِن حمص إلى أنطاكية، ومِن أنطاكية إلى طرسوس، ثم رجعتُ مِن طرسوس إلى حمص، وكان بقي عليّ شيء مِن حديث أبي اليمان، فسمعتُ ثم خرجت مِن حمص إلى بيسان، ومِن بيسان على الرقة، ومِن الرقة ركبت الفرات إلى بغداد، وخرجتُ قبل خروجي إلى الشام مِن واسط إلى النيل، ومِن النيل إلى الكوفة. كلُّ ذلك ماشياً، كلُّ هذا في سفري الأول، وأنا ابن عشرين سنةً، أَجول سبع سنين..."![١٤٠].

وانظر إلى هذه المسافات، وإلى هذه الهمة، وإلى قوله: "وأنا ابن عشرين سنة"! وانظر ما يصنع غالب أبناء العشرين سنة مِنّا اليوم، وغالبُ أبناء الثلاثين والأربعين...إلخ!!.

---

(١٣٨) الجرح والتعديل (تقدمته)، ٣٥٩.

(١٣٩) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء: ٩٦٣.

(١٤٠) الجرح والتعديل (تقدمته)، ٣٥٩-٣٦٠.

ومِن رحلاتهم رحلة أبي حاتم العجيبة:

قال ابن أبي حاتم: "وسمعتُ أبي يقول: لما خرجنا من المدينة، مــن عنــد داود الجعفريّ، صِرنا إلى الجار[١٤١]، وركبنا البحر، وكنا ثلاثة أنفــس: أبــو زهــير المرْوَرُّوذيّ شيخ، وآخر نيسابوري، فركبنا البحر، وكانت الريح في وجوهنا، فبقينا في البحر ثلاثة أشهر، وضاقت صدورنا، وفني ما كان معنا مِن الزاد، وبَقيَتْ بقيّة، وخرجنا إلى البر فجعلنا نمشي أياماً على البر، حتى فني ما كان معنا من الزاد والماء، فمشينا يوماً وليلةً لم يأكل أحدٌ منّا شيئاً، ولا شربنا، واليوم الثاني كمثلٍ، واليــوم الثالث، كل يومٍ نمشي إلى الليل، فإذا جاء المساء صلينا، وألقينا بأنفسنا حيث كنا، وقد ضعفت أبداننا مِن الجوع والعطش والعياء، فلما أصبحنا اليوم الثالث، جعلْنــا نمشي على قدر طاقتنا، فسقط الشيخ مغشياً عليه، فجئنا نحرّكه وهــو لا يَعْقــل، فتركناه، ومشينا أنا وصاحبي قدر فرسخ أو فرسخين، فضعفتُ، وسقطتُ مغــشياً عليّ، ومضى صاحبي وتركني، فلم يزل هو يمشي، إذ بصر من بعيدٍ قوماً، قد قرّبوا سفينتهم من البر، ونزلوا على بئر موسى ﷺ، فلما عاينهم، لــوّح بثوبــه إلــيهم، فجاءوه معهم الماء في إداوة[١٤٢] فسَقَوْهُ وأخذوا بيده، فقال لهم: الحقوا رفــيقين لي قد ألقوا بأنفسهم مغشياً عليهم، فما شعرتُ إلا برجل يصبُّ الماء على وجهــي،

---

(١٤١) الجار موضع قرب المدينة، كما أنه موضعٌ بساحل عمان، كما في لسان العرب، وقال: "الجار هو بتخفيف الراء: مدينة على ساحل البحر، بينها وبين مدينة الرسول ﷺ يوم وليلــة". لــسان العرب، ٤/١٥٦، مادة (جور).

(١٤٢) "إناء صغير مِن جلد يُتّخذ للماء، كالسطيحة، ونحوها"، "النهاية في غريب الحديث"، ١/٣٣، (أدا).

ففتحتُ عينيّ، فقلت: اسقني؛ فصبّ من الماء في ركوةٍ أو مشربة شيئاً يسيراً، فشربت، ورجعَتْ إليّ نفسي، ولم يُروني ذلك القدر، فقلت: اسقني؛ فسقاني شيئاً يسيراً، وأخذ بيدي، فقلتُ: ورائي شيخ ملقى، قال قد ذهب إلى ذاك جماعة، فأخذ بيدي، وأنا أمشي أجرّ رِجليّ، ويسقيني شيئاً بعد شيء حتى إذا بلغتُ إلى عند سفينتهم، وأتوا برفيقي الثالث الشيخ، وأحسنوا إلينا أهل السفينة، فبقينا أياماً حتى رجعتْ إلينا أنفسنا، ثم كتبوا لنا كتاباً إلى مدينة يقال لها: راية[١٤٣]، إلى واليهم..." إلى آخر القصة[١٤٤].

وقال ابن أبي حاتم: "سمعت أبي يقول: بقيتُ بالبصرة في سنة أربع عشرة ثمانية أشهر، وكان في نفسي أن أُقيم سنة، فانقطعتْ نفقتي، فجعلْتُ أبيع ثياب بدني شيئاً بعد شيء حتى بقيتُ بلا نفقة، ومضيتُ أطوف مع صديق لي إلى المَشْيَخَة، وأسمع إلى المساء، فانصرف رفيقي، ورجعتُ إلى بيتٍ خالٍ، فجعلْتُ أشرب الماء من الجوع، ثم أصبحتُ مِن الغد، وغدا عليّ رفيقي، فجعلْتُ أطوف معه في سماع الحديث على جوع شديد، فانصرف عني وانصرفتُ جائعاً فلما كان من الغد غَدَا عليّ، فقال: مُرّ بنا إلى المشايخ، قلتُ: أنا ضعيف لا يمكنني. قال: ما ضعفك؟ قلت: لا أكتمك أمري، قد مضى يومانِ ما طعمتُ فيهما شيئاً. فقال: قد بقي معي دينار، فأنا أواسيك بنصفه، ونجعل النصف الآخر في الكراء. فخرجنا من البصرة، وقبضتُ منه النصفَ دينار"!![١٤٥].

---

(١٤٣) محلّة بفسطاط مصر، وهي المحلة التي في وسطها جامعُ عمرو بن العاص.

(١٤٤) الجرح والتعديل (تقدمته)، ٣٦٤-٣٦٥.

(١٤٥) الجرح والتعديل (تقدمته)، ٣٦٣-٣٦٤.

قصة يعقوب بن سفيان الفسوي:

- وعن "محمد بن القاسم بن بشر: سمعت محمدَ بنَ يزيدَ الفَسَوِي العطَّار، سمعت يعقوب بن سفيان يقول: كنت في رحلتي في طلب الحديث، فدخلت إلى بعض المدن، فصادفت بها شيخاً، احتجت إلى الإقامة عليه للاستكثار عنه، وقلّت نفقتي، وبَعُدْت عن بلدي، فكنت أُدمِن الكتابةَ ليلاً، وأقرأ عليه نهاراً، فلما كان ذات ليلة، كنت جالسا أنسخ، وقد تصرّم الليل، فنزل الماء في عينيّ، فلم أبصر السِّراج ولا البيت، فبكيتُ على انقطاعي، وعلى ما يفوتني من العلم، فاشتد بكائي حتى اتكأت على جنبي، فَنِمْت، فرأيت النبي ﷺ في النوم، فناداني: يا يعقوب بن سفيان! لِمَ أنت بكيت؟ فقلت: يا رسول الله! ذهب بصري، فتحسرت على ما فاتني من كَتْبِ سُنَّتِك، وعلى الانقطاع عن بلدي. فقال: اُدْنُ مني. فدنوتُ منه. فأَمَرَّ يده على عينيّ، كأنه يقرأ عليهما. قال: ثم استيقظت فأبصرت، وأخذت نسخي وقعدت في السراج أكتب"[١٤٦].

مثالٌ عجيب لتضحياتهم وانشغالهم بطلب الحديث:

عن "ابن أبي حاتم قال: كنا بمصر سبعة أشهر لم نأكل فيها مرقة، نهارنا ندور على الشيوخ، وبالليل ننسخ ونقابل. فأتينا يوماً أنا ورفيق لي شيخاً، فقالوا: هو عليل ؛ فرأيت سمكة فأعجبتنا، فاشتريناها، فلما صرنا إلى البيت حضر وقت مجلس بعض الشيوخ فمضينا، فلم تزل السمكة ثلاثة أيام، وكاد أن يَنْضى[١٤٧] فأكلناه

---

(١٤٦) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء، ٩٥٦.

(١٤٧) أي: يَخْلَقُ، وفي لسان العرب: "ويقال: أَنْضَى وجهُ فلان ونَضا على كذا وكذا أي =

نيّاً، لم نتفرغ نشويه؛ ثم قال: لا يستطاع العلم براحة الجسد"[١٤٨]!!.

ومِن أمثلة تضحياهم في طلب الحديث:

- ما ذكره ابن طاهر بقوله: "كتبتُ الصحيحين وسنن أبي داود سبع مرات بالأجرة وسنن ابن ماجه عشر مرات، بالريّ"[١٤٩].
- وقول ابن طاهر، أيضاً: "بُلْتُ الدم في طلب الحديث مرتين، مرة ببغداد، ومرة بمكة، وذلك أني كنت أمشي حافياً في حَرِّ الهواجر بهما، وما سألت في حال الطلب أحداً، وكنت أعيش على ما يأتي من غير مسألة، والله ينفعنا به، ويجعله خالصاً لوجهه"[١٥٠].

بل إنّ بعضهم قد انقطع عنه الماء في رحلته لطلب الحديث الشريف؛ فاضطُرَّ إلى أن يَشرَب بَوْلَهُ مِن أجْلِ ذلك![١٥١].

ولا عجبَ أن تَصْدر مثل هذه التضحيات عن المحدِّثين الأخيار، وهم الذين يَعْلمون قَدْر ما يطلبون، وهم الذين يَعْلمون كيف يَحْصل لهم ما يَطلبون!.

كيف لا وهم الذين يروون ما أخرجه مسلم عن عبد الله بن يحيى بن أبي كثير، عن أبيه، قال: "لا يستطاع العلم براحة الجسم"![١٥٢].

=

أَخْـلَقَ". لسان العرب: ٣٣٢/١٥، مادة (نضا).

(١٤٨) تذكرة الحفاظ، ٨٣٠/٣.

(١٤٩) تذكرة الحفاظ، ١٢٤٣/٤.

(١٥٠) تاريخ دمشق، ٢٨١/٥٣.

(١٥١) منهم: عبد الرحمن بن يوسف بن سعيد بن خراش- على حدِّ ما ذكر عن نفسه-، ينظـر: تذكرة الحفاظ، للذهبي، ٦٨٥/٢.

(١٥٢) صحيح مسلم، برقم ٦١٢، المساجد ومواضع الصلاة، ٤٢٨/١.

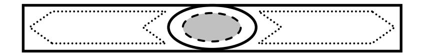
المطلب الثالث: عناوين تَرْوِي الحقيقة:

مما يُعرِّفُك بجهود أولئك الصالحين الأفاضل من محدِّثي هذه الأمة تجاه ميراث النبوة، أن تقِف على عناوين رائعة تدل على: صفاتهم، وأخلاقهم، ومنهجهم، وجهودهم. تلك العناوين التي يمكن أن يعبِّر بها أيُّ مطّلع عليها عن واقعهم دون تكلّفٍ في تلك العناوين أو تزويق.

فمن العناوين التي تَرْوِي الحقيقة ما تقِف عليه في تاريخهم من نحو العناوين التالية:

- تحمُّلهم شَظَفَ الحياة وشدّتها في طلب الحديث.
- سعة حفظهم، وأخبارهم في ذلك.
- تفرُّغ بعضهم للحديث.
- جهودهم في التأليف وأحوالهم العجيبة في هذا الباب.
- تسلسل الأبناء والآباء منهم في التعاقب على هذه المهمة الشريفة.
- دقتهم وتوثقهم.
- رجوع أحدهم عن الخطأ إذا تبين له بغضّ النظر عن سِنٍّ من نبهه أو حاله.
- نفقاتهم في هذا الشأن.
- رحلاتهم.
- دروسهم ومجالسهم واختباراتهم.
- صرامتهم في نقد الرواة والمرويات دون مجاملة لقريب أو بعيد.

- حرصهم على سماع الحديث وإسماعه، وعلى لقاء الشيوخ للأخذ عنهم، حتى إنهم قد يُعَزّون من يفوته السماع من شيخٍ لوفاته.
- كثرة عدد الحاضرين لبعض مجالس التحديث والإملاء.
- منهجهم ودقتهم فيه.
- تعبدهم لله تعالى بالحديث وعملهم به.
- أخلاقهم وتعلقهم بالفضائل.



المبحث الرابع
منهج عنايتهم بالسّنّة

ينقسم هذا المبحث إلى ستة فروع، سأذكرها على النحو التالي:

الفرع الأول: ذِكْرُ معالم منهج المحدّثين في العناية بالسنة فقهاً وتطبيقاً:

تأملتُ منهج المحدِّثين في العناية بالسنة، فقهاً وتطبيقاً، فتوصّلت إلى عددٍ من العناوين التي توضِّح معالم منهجهم، استخلصتُها مما وقفت عليه من جهودهم وسيرهم، رحمهم الله تعالى.

ولعل من أهم معالم منهجهم في جهودهم نحو السنّة النبويّة، ما يلي:

- فقههم لغايتهم التي يسعون من أجلها.
- تقديرهم واحترامهم لحديث رسول الله ﷺ.
- تقرُّر أصل الاتّباع عندهم وعدم الابتداع.
- التزامهم بالأخلاق الحميدة والصفات الإيمانية العالية.
- تلقّيهم الحديث للعمل به كما هو، لا لنصرة مذهبٍ أو رأي.
- توازنهم في القيام بهذا الواجب إلى جانب غيره من الواجبات.
- تفرُّغُ كثير منهم للقيام بهذا الواجب وانقطاعهم له.
- صرامتهم في النقد وعدم المجاملة.
- فقههم للسنن ولمسائل هذا العلم المنهجية فقهاً سديداً.
- عدم اعتقادهم العصمة لأحد سوى رسول الله ﷺ.

- اعتدالهم في النقد.

وبالوقوف على أخبارهم، وسِيَرِهم، ومواقفهم، وأقوالهم، فيما يندرج تحت هذه العناوين يتضح منهج عنايتهم بالسنة، الذي حَكَمَ منهجَهم، ويتأكد هذا المنهج بالوقوف ذلك.

الفرع الثاني: فقههم لغايتهم:

فيما يلي حديثٌ عن بعض هذه العناوين في فقرات:

يتبين فقههم لغايتهم التي يسعون لها من خلال جهودهم وعلومهم، وقد تنحصر هذه الغاية في الثلاثة الأهداف الرئيسة التالية:

- توثيق السنة النبوية.
- العمل والتعبد لله تعالى بها.
- نشرهـــا.

ونتج عن هذا، عنايتُهم بالصحيح من الروايات وتمييزها عن سواها.

ومِن هنا أرشد الإمام عبد الله بن المبارك إلى ملاحظةٍ هامة بقوله: "في صحيح الحديث شغلٌ عن سقيمه"[١٥٣].

قلت: ولكن من أجل الحفاظ على الصحيح لابد من بيان السقيم ونقده، ولكن تَصْدق كلمة هذا الإمام هذه على مجال التعبد والعمل اللذين لا يغني فيهما إلا الصحيح، وتَصْدق أيضاً على ترتيب الأولوية في الطلب والتحصيل، أما مسألة الاشتغال بهذا العلم بعامة فينبغي أن تَشْمل هذا وهذا، والله الموفق.

---

(١٥٣) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء: ٦٥٧.

الفرع الثالث: تقديرهم للحديث:

ومن معالم منهجهم: تقديرهم لحديث رسول الله ﷺ وإجلالهم له، وشدّة رعايتهم لهذا الحب والتعظيم، بحيث يُرْخِصُ أحدهم نفسه ويُذِلُّها، ولا يُذلّ الحديث، على ما تشهد به سيرهم وعباراتهم.

ومن هنا فلا عَجَبَ مما رواه أحمد بن أبي الحَوَاريّ، قال: "جاء رجل من بني هاشم إلى عبد الله بن المبارك ليَسمع منه، فأبي أن يُحدّثه، فقال الشريف لغلامه: قمْ، فإنّ أبا عبد الرحمن لا يرى أن يحدثنا، فلما قام ليركب، جاء ابن المبارك ليُمسك بركابه، فقال: يا أبا عبد الرحمن، تفعل هذا ولا ترى أن تحدثني! فقال أُذِلُّ لك بَدَني، ولا أُذل لك الحديث"(١٥٤)!!

الفرع الرابع: الْتِزامهم بالأخلاق الحميدة والصفات الإيمانية العالية:

لقد كانت الأخلاق الحميدة والصفات الإيمانية العالية هي السمة الغالبة لأغلب المحدثين، ولعل أهم خُلُقٍ يجمع هذه الأخلاق هو أهم طلبوا الحديث للعمل به، وللتدين وعبادة الله تعالى، وهذا هو أهم الأسباب أيضاً لتخلُّقهم بالأخلاق الحميدة، وهم يمرون في الحديث ببيان الأخلاق الفاضلة والحث عليها، وببيان الأخلاق الرذيلة والتحذير منها، وبصفاتِ المؤمنين، وصفاتِ الكافرين والمنافقين.

ولهذا قال سفيان الثوري: "ما بلغني عن رسول الله ﷺ حديث قطُّ إلا عملتُ به ولو مرة"(١٥٥).

---

(١٥٤) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء: ٦٥٧.

(١٥٥) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء: ٥٨٤.

قال وكيع: "كنا نستعين على حفظ الحديث بالعمل به، ونستعين على طلبه بالصوم"[١٥٦].

ومشهور عن أئمة الحديث: الصدق، والشجاعة، والكرم، والمروءة، والتقى، والورع، والعبادة، والمجاهَدَةُ، وسائر كريم الأخلاق.

- ولقد تجلّتْ أخلاقهم وثمراتها في سلوكهم وأعمالهم، سواء فيما يتعلق بسيرتهم في طلب الحديث وتعليمه، أو فيما يتعلق بسيرتهم العامة.

لقد تَجلّت هذه الأخلاق في مسالكهم في رواية الحديث وتلقّيه، وفي جرحهم وتعديلهم للرواة، وفي تعاملهم مع الناس. وتراجِمُهُم في كُتب التراجم خير شاهدٍ على هذا، وقد لا نستطيع أن نأتيَ على الحصْر في هذا الباب، ولو سلكنا مسلك التفصيل.

واستمعْ أو اقرأ الأمثلة التالية، عن ثمرات كريم أخلاقهم التي تبيّن لك إلى أيّ مَدىً تَعلّقوا بالفضائل والدار الآخرة:

١- قال "الحسين بن أحمد الصفّار: سمعت ابن أبي حاتم يقول: وَقَعَ عندنا الغلاء، فأنفذ بعض أصدقائي حبوباً من أصبهان، فأنفقتُها على الفقراء، وكتبتُ إليه: اشتريت لك بها قصراً في الجنة؟. فقال: رضيتُ إن ضمنتَ. فكتبتُ إليه على نفسي صكاً بالضمان. فأُريت في المنام: قد قبلنا ضمانك، ولا تَعُد لمثل هذا"!!

ثم علّق الإمام الذهبي على القصة بقوله: "قلت: الحسين ضعيف"[١٥٧].

---

(١٥٦) جامع بيان العلم وفضله، ٧٠٩/١.

(١٥٧) تذكرة الحفاظ: ٨٣١/٣.

قلتُ: والمعنى يحتاج إلى الرجوع فيه إلى الشرع، والمنامات ليست مصدراً للتشريع. فإنْ صحت القصة فليست إلا اجتهاداً منه، رحمه الله، حمَلَه عليه شدة رغبته في الخير، ولكن، الخير في الورع عن مثل هذا في مثل هذا المقام.

٢- "قال ابن الجنيد، سمعت يحيى بن معين يقول: إنا لنطعن على أقوام لعلهم قد حطوا رحالهم في الجنة من مائتي سنة!".

وعلّق على هذا الذهبي في سير أعلام النبلاء بقوله: لعلها: "من مئة سنة"؛ فإن ذلك لا يَبْلغ في أيام يحيى هذا القَدْر"(١٥٨).

٣- قال ابن مهرويه: "دخلت على ابن أبي حاتم وهو يحدّث بكتابه "الجرح والتعديل"، فحدّثته بهذا؛ فبكى وارتعدت يداه، وسقط الكتاب، وجعل يبكي ويستعيدني الحكاية "(١٥٩)! وعلّق الذهبي في "السير" على هذا بقوله: "أصابه على طريق الوجل وخَوْفِ العاقبة، وإلا فكلام الناقد الورع في الضعفاء من النصح لدين الله والذب عن السنة"(١٦٠).

٤- من ثمرات أخلاقهم الفاضلة رواية الأكابر منهم عن الأصاغر:

فمن أخلاقهم أنهم روى الأكابر منهم عن الأصاغر، سواء في السن أو الفضل أو فيهما معاً، فروى الكبير عن الصغير، وروى الشيخ عن تلميذه، وروى الآباء عن الأبناء، حتى أنهم احتاجوا أن يَعْقدوا باباً مستقلاً في أنواع علوم الحديث عن هذا النوع من الرواية؛ لئلا يَظُن المطّلعُ على الرواية أنّ المروي

(١٥٨) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء: ٩٦٨.

(١٥٩) تذكرة الحفاظ: ٣/ ٨٣١.

(١٦٠) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء: ٩٦٨.

عنه في هذه الحال أكبر من الراوي عنه أو أفضل مطلقاً...

فأين نحن اليوم من هذا الخلق الكريم؟!

هل نكتفي بروايته ونغفل عن فقهه ودرايته؟!

هل نكتفي بالمفاخرة به تاريخاً وننساه واقعاً؟!

ما أعظمَ الغفلةَ، وما أشدَّ الخطرَ؛ فاللهم سَلِّمْ سَلِّمْ.

حقاً لقد وصَلْنا-في غالب أحوالنا-في هذا إلى مستوىً مُزْرٍ؛ إننا إذْ لم يرو منا الكبير عن الصغير، لم نكتف بهذا، بل نزلنا إلى مستوىً أبعدَ، حيث لم يَرْضَ كثير من صغارنا في أحوالٍ كثيرة بالتواضع والأخذ عن القرين، بل إلى عدم القناعة والرضا بالأخذ عن الكبير!.

أمّا السلف الصالح فكان فيهم الكبير يروي عن الصغير، ويروي الأب عن ابنه، والشيخ عن تلميذه، والقرين عن قرينه، وقالوا: لا ينبل الرجل حتى يكتب الحديث عن كل أحد. والله المستعان.

فهل يتجدد التاريخ، أم أنه سيظل تاريخاً فقط؟!

هل سنتفهم الدروس من تاريخنا أم ستكون مهمتنا هي قراءةُ التاريخ فقط على أنه قصص وأحداث كانت في الماضي، أم أننا سنتعلم تاريخَنا على أنه دروسٌ في الفضائلِ وتطبيقِ الإسلام، وأنه عِبَرٌ ومواعظ..؟!.

الفرع الخامس: نقْدهم للمبالغات وردُّهم لها:

ساقَ الإمام الذهبيّ في ترجمة وكيع بن الجرّاح بالسند إلى يحيى بن أكثم أنه قال: "صَحِبْتُ وكيعاً في الحضر والسفر، وكان يصوم الدهر، ويختم القرآن كل

ليلة"[١٦١]. وعلّقَ الذهبي على هذا بقوله:

قلت: هذه عبادةٌ يُخْضَع لها. ولكنها من مثل إمام من الأئمة الأثرية "مفضولة؛ قد صح نهيه عليه السلام عن صوم الدهر، وصح أنه نهى أن يقرأ القرآن في أقل من ثلاث، والدين يسر، ومتابعة السنة أولى، فرضي الله عن وكيع، وأين مثل وكيع؟!

ومع هذا فكان ملازماً لشرب نبيذ الكوفة، الذي يُسْكر الإكثارُ منه، متأوّلاً، في شربه، ولو تركه تورعاً كان أولى به؛ فإن من توقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، وقد صح النهي والتحريم للنبيذ المذكور. وليس هذا موضع هذه الأمور.

وكلٌّ أحدٍ يؤخذ من قوله ويُتْرك، فلا قدوة في خطأ العالم. نَعَم ولا يُوَبَّخُ بما فعَله باجتهاد، نسأل الله له المسامحة"[١٦٢].

وقال الذهبي في ترجمة ابن عطاء الزاهد العابد:

"وقيل: إن ابن عطاء فَقَد عقله–يَعني بسبب مجاهدته لنفسه بالجوع والخلوة– ثمانية عشر عاماً، ثم ثاب إلى عقله.

ثَبَّت الله علينا عقولنا وإيماننا، فمن تسبب في زوال عقله بجوع أو رياضة صعبة، وخلوة، فقد عصى وأثم، وضاهى من أزال عقلَه بعض يومٍ بسُكرٍ. فما أحسنَ التقيدَ بمتابعة السُّنن والعلم!"[١٦٣].

---

(١٦١) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء:٦٩٦-٦٩٧.

(١٦٢) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء: ٦٩٦-٦٩٧.

(١٦٣) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء: ١٠٣٧.

- "وقال أبو بكر بن داسَةَ: سمعت أبا داود يقول: كتبت عن رسول الله ﷺ خمس مئة ألف حديث، انتخبت منها ما ضمنته هذا الكتاب-يعني كتاب "السنن"، جمعتُ فيه أربعة آلاف حديث وثماني مئة حديث، ذكرت الصحيح، وما يشبهه ويقاربه، ويَكْفي الإنسانَ لدينه من ذلك أربعة أحاديث، أحدها: قوله ﷺ: (الأعمال بالنيات) والثاني: (من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه). والثالث قوله: (لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يرضى لأخيه ما يرضى لنفسه). والرابع: (الحلال بيّن)...الحديث.

وعلق الذهبي على هذا قائلاً:

"قوله: يكفي الإنسان لدينه" ممنوع، بل يَحتاجُ المسلم إلى عدد كثير من السنن الصحيحة مع القرآن"[١٦٤].

- "وروي عن الحافظ أبي عبد الرحمن النَّهاوَنْدي أنه سمع الفسوي يقول: كتبت عن ألف شيخ وكَسْرٍ كلهم ثقات.

قلت: ليس في مشيخته إلا نحو من ثلاث مئة شيخٍ، فأين الباقي؟ ثم في المذكورين جماعة قد ضُعِّفوا"[١٦٥]. أي ليسوا كما في هذا القول.

وقال الإمام الذهبي معلقاً على عبارةٍ أخطأ فيها ابن أبي داود: "وقد أخطأ ابن أبي داود في عبارته وقوله، وله على خطئه أجر واحد، وليس من شرط الثقة أن لا يخطيء ولا يَغلط ولا يسهو. والرجل فمن كبار علماء الإسلام، ومِن

(١٦٤) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء: ٩٥٧.

(١٦٥) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء: ٩٥٦.

أوثق الحفاظ –رحمه الله تعالى–"[١٦٦].

– قال الحافظ الذهبيّ في ترجمة ابن عبد البر:

"قلتُ: كان إماماً دَيّناً ثقة، متقناً، علاّمة، متبحّراً، صاحبَ سنّة واتّباع، وكان أوّلاً أثرياً ظاهرياً – فيما قيل – ثم تحوّلَ مالكياً مع مَيلٍ بَيّنٍ إلى فقْه الشافعيّ في مسائل؛ فإنه ممن بَلَغَ رتْبة الأئمة المجتهدين، ومَن نَظر في مصنّفاته، بَان له منزلتُه من سعة العلم، وقوّة الفهم، وسَيَلانِ الذهن، وكلٌّ أحدٍ يؤخذ من قوله ويُتركُ إلا رسول الله ﷺ، ولكن إذا أخطأ إمام في اجتهاده، لا ينبغي لنا أن ننسى محاسنه، ونُغَطّيَ معارفه بل نستغفر له، ونعتذر عنه"[١٦٧].!!

– وقال الإمام الذهبي عن أبي محمد ابن حزم:

"قلتُ: قد أَخذ المنطق–أبعده الله مِنْ عِلْم–عن محمد بن الحسن المَذْحجِي، وأَمعَنَ فيه، فزلْزَلَهُ في أشياء. وَلِي أنا مَيلٌ إلى أبي محمد لمحبته في الحديث الصحيح، ومعرفته به، وإن كنت لا أوافقه في كثير مما يقوله في الرجال والعلل، والمسائلِ البَشعَة في الأصول والفروع، وأَقطعُ بخطئه في غيرِ ما مسألة، ولكن لا أُكَفّرُه، ولا أُضلله، وأرجو له العفو والمسامحةَ، وللمسلمين، وأَخضعُ لفرْط ذكائه وسَعَةِ علومه"[١٦٨]!!.

– قال الذهبيّ:

"وقال على بن عاصم–وهو من أوعية العلم، لكنه سيء الحفظ–

---

(١٦٦) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء:٩٦٣.

(١٦٧) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء: ١٢٦٩.

(١٦٨) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء:١٢٨٠.

أنا[١٦٩] إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم، قال سمعت أبا بكر الصديق يقول: إياكم والكذب؛ فإنّ الكذب مجانِبُ الإيمان. قلتُ: صَدَقَ الصِّدِيق؛ فإنّ الكذب رأس النفاق، وآية المنافق، والمؤمن يُطْبَع على المعاصي والذنوب الشهوانية، لا على الخيانة والكذب. فما الظن بالكذب على الصادق الأمين صلوات الله عليه وسلامه، وهو القائل: (إنّ كذباً عليّ ليس ككذبٍ على غيري، من يكذب عليّ بُنِيَ له بيت في النار)[١٧٠]، وقال: (من يَقُلْ عليَّ ما لم أَقُلْ فلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ من النار)[١٧١]؛ فهذا وعيدٌ لمن نَقَل عن نبيّه ما لم يقله، مع غَلَبة الظن أنه ما قاله؛ فكيفَ حالُ مَن تَهجّمَ على رسول الله ﷺ وتعمَّدَ عليه الكذب، وقوَّله ما لم يقل، وقد قال عليه السلام: (مَن رَوى عنِّي حديثاً يُرى أنه كَذِب فهو أحدُ الكاذِبِيْن)[١٧٢]؛ فإنا لله وإنا إليه راجعون! ما ذِي إلا بَلِيَّةٌ عظيمة وخطر شديد ممن يروي الأباطيل والأحاديث الساقطة، المتهم نَقَلَتُها

---

(١٦٩) هذا رمزٌ عند المحدّثين، ومعناه: أَخبرنا. يكتبوها رمزاً، اختصاراً.

(١٧٠) أخرجه البخاري برقم ١٢٩١، الجنائز، (الفتح: ٣/١٦٠)، ومسلم برقم ٤، المقدمة ١/١٠.

أما لفظ "بني له بيت في النار" فأخرجه أبو نعيم في: المستخرج على صحيح مسلم، برقم ٢٣، ١/٤٤.

(١٧١) أخرجه البخاري، ٣-العلم، ٣٨-باب إثم مَن كَذب على النبيّﷺ، برقم١٠٩، (الفتح: ١/٢٠١. وقد اقتَصرَ الإمام الذهبيّ في الأصل هنا على الشطر الأول من الحديث، ثم قال: الحديث.

(١٧٢) أَخرجه مسلمٌ في مقدمة صحيحه، ١/٩، وابن ماجه في مقدمة السنن، الأحاديث: ٣٨، ٣٩، ٤٠، ٤١.

بالكذب؛ فحَقٌّ على المحدِّث أن يتورع في ما يؤديه، وأن يَسْأل أهـل المعرفـة والورع؛ ليُعِينوه على إيضاح مروياته. ولا سبيل إلى أن يَصِير العارف، الـذي يُزَكِّي نَقَلَةَ الأخبار ويَجْرحهم، جِهْبذاً[١٧٣]، إلا: بادّمان الطلب، والفحص عن هذا الشأن، وكثرة المذاكرة، والسهر، والتيقظ، والفهم، مع التقوى والدين المـتين، والإنصاف، والتردد إلى مجالس العلماء، والتحري، والإتقان. وإلا تفعل:

فدعْ عنك الكتابةَ لَسْتَ منها * ولـو سـَوَّدتَ وَجْهَك بالمداد

قال الله تعالى، عز وجل: ﴿**فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُوْنَ**﴾[١٧٤].

فإنْ آنستَ يا هذا من نفْسك: فهماً، وصدقاً، وديناً، وورعاً، وإلاّ فلا تـتعنّ، وإنْ غَلَب عليك الهوى، والعصبيةُ لرأي، أو لمذهب؛ فبالله لا تَتْعَبْ. وإنْ عَرَفـتَ أنك مخلِّطٌ مخبِّطٌ، مهملٌ لحدود الله؛ فأَرِحْنا منك؛ فبعْد قليلٍ ينكـشف البَهْـرَج، ويَنْكَبُّ الزَّغَلُ؛ ولا يَحيقُ المكْرُ السيِّئُ إلا بأهله، فقدْ نَصَحتُك؛ فعلْـمُ الحـديث صَلِفٌ؛ فأين عِلمُ الحديث؟! وأين أهلُهُ؟! كِدْتُ أن لا أراهم إلا في كتابٍ أو تحت ترابٍ"[١٧٥]!!.

- قال الإمام الذهبيّ:

"وإنما شأن المحّدِّث اليوم الاعتناء بالدواوين الستة، ومسند أحمد بن حنبل، وسنن البيهقي، وضبْط متونها وأسانيدها، ثم لا يَنْتَفع بذلك حتى يَتّقـيَ ربَّـه، ويَـدِين

---

(١٧٣) الجِهْبَذُ والجِهْباذ: النَّقَّاد الخبير بغوامض الأمور. مُعَرَّب. المعجم الوسيط:١/١٤١. مادة: جهبذ.

(١٧٤) ٤٣: النحل: ١٦.

(١٧٥) تذكرة الحفّاظ، للذهبيّ: ١/٣- ٤.

بالحديث؛ فعلى عِلمِ الحديث وعُلمائه لِيَبْكِ مَن كان باكياً؛ فقدْ عاد الإسلام المحضُ غريباً كما بــدأ، فَلْيَسْعَ امــرؤٌ في فِكاكِ رَقَبتــه مِن النــار، فلا حـــول ولا قــوة إلا بالله"[١٧٦]!.

"ثم العِلْم ليس هو بكثرة الرواية، ولكنه نورٌ يَقْذفه الله في القلب، وشَرْطه الاتّباع، والفرار من الهوى والابتداع. وفقنا الله وإياكم لطاعته"[١٧٧].

الفرع السادس: دِقّتهم في الفقه ومنهجِ الفهم وشفافيتهم فيه:

لِعَدد من أئمة الحديث لطائفُ في باب فقه الحديث ومنهج فهمه والاستنباط منه، سأذْكرُ نماذج منها فيما يلي:

- قال الذهبيّ:

".. قال اليَسَعُ بن حزمٍ الغافقيّ، وذكَرَ أبا محمد فقال: حدّثني عنــه عمــرُ ابن واجب قال: بينما نحن عند أبي بِبَلَنْسيَةَ وهو يُدَرِّسُ المذهب إذا بأبي محمـــد ابن حزمٍ يَسمعُنا، ويَتعجبُ، ثم سأل الحاضرين مسألةً في الفقه، جُووب فيهـــا، فاعتَرضَ في ذلك، فقال له بعض الحُضّار: هذا العلم ليس من مُنْتَحلاتِك، فقـــام وقَعَد، ودَخل منـــزلَه فعَكف، وَوَكَف منه وابِلٌ فما كَفَّ، وما كان بعد أشهرٍ قريبةٍ حتى قَصَدَنا إلى ذلك الموضع، فناظر أَحسن مناظرة، وقال فيها: أنا أَتَّبـــع الحق، وأجتهد ولا أَتقيّدُ بمذهبٍ"[١٧٨].

---

(١٧٦) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء: ٩٧٩- ٩٨٠

(١٧٧) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء: ٩٨٠.

(١٧٨) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء: ١٢٧٦ ١٢٧٧.

وهُنا عَلّق الإمام الذهبي بقوله: "قلتُ: نَعَم، مَن بَلغ رُتبة الاجتهاد، وشهد له بذلك عِدّةٌ من الأئمة، لَمْ يَسُغْ له أن يُقَلِّدَ، كما أن الفقيه المُبتدئَ والعاميَّ الذي يحفظ القرآن أو كثيراً منه لا يَسوغُ له الاجتهاد أبداً، فكيف يَجتهِدُ؟! وما الذي يقول؟! وعلامَ يَبني؟! وكيف يَطيرُ ولَمّا يُرَيِّشْ؟!.

- ثم قال الذهبيّ:

"والقِسم الثالث: الفقيه المنتهي اليَقِظُ الفَهِمُ المحدِّث، الذي قد حفظ مختصراً في الفروع وكتاباً في قواعد الأصول، وقرأ النحو، وشارك في الفضائل مع حفظه لكتاب الله وتشاغُلِه بتفسيره وقُوّةِ مُناظرته، فهذه رُتبةُ من بلغ الاجتهاد المقيَّد، وتأهّلَ للنظر في دلائل الأئمة؛ فمتى وضَحَ له الحق في مسألة، وثَبَت فيها النص، وعَمِل بها أحدُ الأئمة الأعلام كأبي حنيفة مثلاً، أو كمالك، أو الثوري، أو الأوزاعيّ، أو الشافعيّ وأبي عبيد، وأحمد، وإسحاق، فَلْيَتَّبِعْ فيها الحقَّ ولا يَسْلُك الرُّخص، ولْيتورع، ولا يسعه فيها بعد قيام الحجةِ عليه تقليدٌ، فإن خاف ممن يَشْغب عليه من الفقهاء فلْيَتكتمَّ بها ولا يتراءى بفعلها، فربما أعجبته نفسه، وأحبَّ الظهور، فيُعاقَب، ويَدخل عليه الداخلُ من نفسه. فكم من رجلٍ نَطق بالحقِّ، وأَمَر بالمعروف، فيُسَلِّطُ اللهُ عليه من يؤذيه لسوءِ قصْدِه، وحُبِّه للرئاسة الدينية.

فهذا داءٌ خفيٌّ سارٍ في نفوس الفقهاء، كما هو سارٍ في نفوس المنفقين من الأغنياء، وأربابِ الوقوفِ والتُّرَبِ المُزَخْرَفَة، وهو داءٌ خفيٌّ يسْري في نفوس الجند والأمراء والمجاهدين؛ فتراهم يَلْتقون العدوّ، ويَصْطدم الجمعان وفي نفوس المجاهدين مُخَبَّآتٌ وكمائنُ، من الاختيالِ وإظهارِ الشجاعة ليقال، والعُجْبِ،

ولبْس القَراقِل[١٧٩] المُذَهَّبَة، والخُوَذ المزخرفة، والعُدد الـمُحَلاّة على نفوسٍ مُتكبرة، وفُرسانٍ متجبّرة، وينضاف إلى ذلك إخلالٌ بالصلاة، وظلْم للرعيّة، وشربٌ للمسكر، فأنى يُنصرون؟! وكيف لا يُخذَلون؟ اللهمّ فانصر دينَك، ووفِّقْ عبادك. فمَنْ طَلَبَ العلم للعمل كَسَرَهُ العِلْم، وبكى على نفسه، ومن طَلَبَ العِلْم للمدارس والإفتاء والفخر والرياء، تحامقَ واختالَ، وازدرى بالناس وأهلكه العُجْب، ومقتتْهُ الأنفس ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا**﴾ (الشمس: ٩، ١٠) أي: دسسها بالفجور والمعصية. قُلِبتْ فيه السين ألفاً"[١٨٠]!!.

- "عن قَزَعَةَ، قال: رأيت على ابن عمر ثياباً خَشنةً أو جَشبةً؛ فقلت له: إني قد أتيتك بثوبٍ لَيِّنٍ مما يصنع بخراسان، وتقرُّ عيناي أن أراه عليك. قال: أَرِنيه، فلمسه، وقال: أحرير هذا؟ قلت: لا، إنه من قُطْن. قال: إني أخاف أن ألبسه، أَخافُ أن أكونَ مُختالاً فخوراً؛ والله لا يُحِبُّ كلَّ مُختالٍ فخور.

قلت -القائل هو الذهبيّ-: كلُّ لباس أَوجدَ في المرء خيلاءَ وفخراً فترْكه مُتَعيِّن، ولو كان من غير ذهب ولا حرير. فإنا نرى الشابَّ يلبس الفَرَجية[١٨١] الصوف بفَرْوٍ مِن أثمان أربع مئة درهم ونحوها، والكِبْرُ والخُيَلاءُ على مشيته ظاهر، فإن نَصَحْتَه ولُمْته برفقٍ كابرَ، وقال: ما فيّ خيلاء ولا فخرٌ. وهذا السيدُ

---

(١٧٩) نوع من الثياب.

(١٨٠) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء: ١٢٧٦-١٢٧٨.

(١٨١) ثوب واسع طويل الأكمام.

ابنُ عمر يخافُ ذلك على نفسه. وكذلك ترى الفقيهَ المترف إذا لِيمَ في تفصيلِ فَرَجية تحت كعبيه، وقيل له: قد قال النبيُّ ﷺ: (ما أسفل من الكعبين من الإزار ففي النار)(١٨٢)، يقول: إنما قال هذا فيمن جرَّ إزاره خُيلاء، وأنا لا أفعلُ خُيَلاء. فتراه يُكابرُ، ويُبَرِّيءُ نفسه الحمقاء، ويعمدُ إلى نصٍّ مُستَقِلٍّ عامٍّ فيخصُّهُ بحديثٍ آخر مُستَقِلٍّ بمعنى الخُيلاء، ويتَرخصُ بقول الصديق: إنه يا رسول الله يسترخي إزاري، فقال: (لستَ يا أبا بكر ممن يفعله خُيَلاء)(١٨٣) فقلنا: أبو بكر رضي الله عنه لم يكن يُشدُّ إزاره مَسْدُولاً على كعبيه أوّلاً، بل كان يَشُدُّه فوق الكعب، ثم فيما بعد يسترخي. وقد قال عليه السلام: (إِزْرَةُ المؤمنِ إلى أنصاف ساقيه، لا جُناح عليه فيما بين ذلك وبين الكعبين)(١٨٤) ومثلُ هذا في النهي لمن فَصَّلَ سراويل مُغَطّياً لكعابِه. ومنه طولُ الأكمام زائداً، وتطويلُ العذَبة. وكلُّ هذا من خُيلاء كامنٍ في النفوس. وقد يُعْذر الواحدُ منهم بالجهل، والعالِمُ لا عُذْر له في تركِهِ الإنكارَ على الجَهَلَة. فإنْ خُلِعَ على رئيس خلعة سِيَرَاء(١٨٥) من ذهبٍ وحريرٍ، وقُنْدُس(١٨٦) -يُحَرِّمُهُ ما وَرَدَ في النهي عن جلود السباع -ولبسها

---

(١٨٢) أخرجه البخاري برقم ٥٨٨٧، اللباس، (١٠/٢٥٦، فتح).

(١٨٣) أخرجه البخاري برقم ٥٧٨٤، اللباس، (١٠/٢٥٤، فتح)، بلفظ: (..لست ممن يصنعه خيلاء).

(١٨٤) أخرجه ابن حبان في "صحيحه"، ٥٤٢٣، اللباس ٧/٣٩٩، وابن ماجة في "سننه" ٣٥٧٣، اللباس، ٢/١١٨٣.

(١٨٥) السِّيَرَاءَ: الحرير الصافي، ومعناه: حُلَّةُ حريرٍ. يُنظر: لسان العرب، ٤/٣٩١، مادة (سير).

(١٨٦) القَنْدَسُ هو: كلب الماء، معروف، وله شعرٌ، وجلدُهُ يُصْنَعُ منه ثيابٌ وحُلَلٌ. ينظر: فتح

الشخصُ يسحبها ويختال فيها، ويَخطُرُ بيده، ويغضب ممن لا يُهنّيه بهذه المحرمات، ولاسيما إن كانت خلعة وزارةٍ وظلمٍ ونظر مَكْس[١٨٧] أو ولاية شرطة. فلْيتهيّأْ للمقْتِ وللعزلِ والإهانةِ والضرب، وفي الآخرة أشد عذاباً وتنكيلاً. فرضيَ الله عن ابن عمر وأبيه. وأين مثل ابن عمر في دينه، وورعه وعلمه، وتألُّهِهِ وخوفِهِ من رجلٍ تُعْرَضُ عليه الخلافة، فيأباها، والقضاءُ من مثل عثمان فيردُّه، ونيابةُ الشام لِعليٍّ فيهرب منه. فالله يَجتبي إليه من يشاء، ويهدي إليه من ينيب"[١٨٨].

- "عن نافع أو غيره، أن رجلاً قال لابن عمر: يا خير الناس وابن خير الناس. فقال: ما أنا بخير الناس، ولا ابن خير الناس، ولكني عبدٌ من عباد الله، أرجو الله، وأخافه، واللهِ لن تزالوا بالرجل حتى تُهلِكُوه"[١٨٩].
- "أخبرنا أحمد بن سلامه في كتابه، عن عبد الرحيم بن محمد الكاغدي، وأخبرنا إسحاقُ بن خليل، أخبرنا الكاغدي، أخبرنا أبو علي الحداد، أخبرنا أبو نعيم، حدثنا إسحاق بن أحمد، حدثنا إبراهيمُ بن يوسف، حدثنا أحمد بن أبي الحَواري قال: قلتُ لراهبٍ في دَيرِ حَرْمَلَة[١٩٠]، وأشرفَ من صومعته: ما اسمك؟ قال: جريج. قلت: ما يحبِسُك؟ قال: حبستُ نفْسي عن الشهوات.

=

الباري ٦/٦٠٨.

(١٨٧) الجباية أو الضريبة.

(١٨٨) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء: ٢٦٠- ٢٦١.

(١٨٩) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء: ٢٦١.

(١٩٠) اسم موضعٍ، كما يدل عليه السياق، و لم أقف على جهته.

قلت: أما كان يَسْتقيم لك أن تذهب معنا ها هنا، وتجيء وتمنعها الشهوات، قال: هيهات!! هذا الذي تصفُه قوةٌ، وأنا في ضعف. قلت: ولِمَ تفعلُ هذا؟ قال: نجدُ في كتبنا أنَّ بَدَنَ ابن آدم خُلِقَ من الأرض، وروحه خُلق من ملكوت السماء، فإذا أجاع بدنه وأعراه وأسهره وأَقْمأَه[191] نازعَ الرُّوحُ إلى الموضع الذي خَرج منه، وإذا أطعمه وأراحه أخلد البَدنُ إلى الموضع الذي منه خُلِقَ، فأحبَّ الدنيا. قلت: فإذا فعل هذا يُعَجَّلُ له في الدنيا الثواب؟ قال: نعم، نورٌ يوازيه[192]. قال: فحدّثتُ بهذا أبا سليمان الداراني، قال: قاتَلَهُ الله، إنهم يَصِفُون.

قلت–القائل هو الذهبيّ–: الطريقة المُثْلى هي المحمديّة، وهي الأخذ من الطيبات، وتَناوُلُ الشهواتِ المباحةِ من غير إسراف، كما قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً**﴾[193]. وقد قال النبي ﷺ: (لكِنِّي أَصُومُ وأُفْطِرُ، وأَقُومُ وأنامُ، وآتي النِّساءَ، وآكلُ اللّحمَ؛ فمَن رَغِب عن سنّتي فليس منِّي)[194]؛ فلم يَشْرَع لنا الرهبانيّة ولا التمزّقَ ولا الوِصالَ، بل ولا صومَ الدَّهر. ودينُ الإسلام يُسْرٌ وحنيفيةٌ سَمْحةٌ، فلْيأكل المسلمُ من الطيب إذا أمكنه،

(191) في لسان العرب: "قمأ: قَمَأَ الرَّجُلُ وغيرُه، وقَمُؤَ قَمْأَةً وقَمَاءً وقَمَاءَةً، لا يُعْنَى بقَمْأَة، ها هنا المرَّة الواحدة البتَّة: ذَلَّ وصَغُرَ وصار قَمِيئاً...". لسان العرب، 1/134، مادة (قمأ).

(192) أي: يسير معه حيث سار.

(193) 51: المؤمنون: 23.

(194) الحديث في الصحيحين، وليس فيه (وآكل اللحم)، ولفظه عند البخاري: (...لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي)، ح 5063، النكاح، وجاء ذِكر اللحم هنا عن النبي ﷺ في تفسير ابن كثير، 2/ 119، و2/ 683، وفي ثبوت هذه اللفظة فيه نظر، والله أعلم.

كما قال تعالى، ﴿**لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ**﴾[١٩٥]، وقد كان النِّساءُ أَحبَّ شيءٍ إلى نبينا ﷺ، وكذلك اللحم والحلواء والعسل والشراب الحُلْوُ البارد والمِسْكُ، وهو أفضل الخَلْق وأَحبُّهم إلى الله تعالى. ثم العابدُ العَريُّ من العلم، متى زَهد وتَبَتَّل وجاعَ، وخَلا بنفْسه، وترَك اللحمَ والثمارَ، واقتصر على الدُّقّة[١٩٦] والكِسْرة، صَفَتْ حَواسُّه ولَطُفَتْ، ولازمتْه خَطَراتُ النفسِ وسَمِعَ خطاباً يتولَّد من الجوع والسهرِ، لا وجودَ لذلك الخطاب-والله-في الخارج، ووَلَجَ الشيطانُ في باطنه وخَرَج؛ فيعتقدُ أنه قد وصَل، وخوطِبَ وارتقى؛ فيتمكن منه الشيطان، ويوسوِسُ له، فينظرُ إلى المؤمنين بعينِ الازدراء، ويَتذكر ذنوبَهم، ويَنظرُ إلى نفسه بعينِ الكمالِ وربّما آلَ به الأمرُ إلى أن يعتقدَ أنَّه وَليٌّ، صاحبُ كرامات وتمكُّنٍ، وربّما حصلَ له شَكٌّ، وتزلزَلَ إيمانُهُ. فالخَلْوَةُ والجوع "أبوجاد"[١٩٧] الترهُّب، وليس ذلك من شريعتنا في شيءٍ. بلى، السلوك الكامل هو الورَعُ في القوتِ، والورعُ في المنطق، وحفظُ اللسان، وملازمةُ الذكْر، وتركُ مخالطة العامة، والبكاءُ على الخطيئة، والتلاوةُ بالترتيلِ والتدبُّرِ، ومَقْتُ النفسِ وذمُّها في ذات الله، والإكثارُ من الصوم المشروع، ودوامُ التهجُّد، والتواضعُ للمسلمين، وصلةُ الرحِمِ، والسماحةُ وكثرةُ البِشْرِ، والإنفاقُ مع الخَصاصة، وقولُ الحق المُرِّ برفْقٍ وتُؤَدَةٍ، والأمر بالعُرْف، والأخذُ بالعفْوِ، والإعراضُ عن الجاهلين، والرباطُ

---

(١٩٥) ٧: الطلاق: ٦٥.

(١٩٦) هي مجموعةُ بهاراتٍ وأبازير، تُخْلط، وتُدَقّ، ويؤكل بها الخبزُ، ولا تزال معروفةً في الحجاز إلى اليوم!. يُنظَر: لسان العرب، مادة: دقق، ١٠/١٠١.

(١٩٧) من قولهم: أبجد هوّز.

بالثَّغْرِ، وجهادُ العدوِّ، وحجُّ البيت، وتناولُ الطيبــاتِ في الأحــايين، وكثــرةُ الاستغفارِ في السَّحَرِ. فهذه شمائلُ الأولياءِ، وصفاتُ المحمديِّين، أماتَنَا الله علــى محبَّتِهم"[١٩٨].

توازنهم في العناية بهذا الواجب وسواه من الواجبات:

قال ابن مهدي: "سمعت شعبة يقول: إن هذا الحديث يصدُّكم عن ذكر الله، وعن الصلاة، وعن صلة الرحم، فهل أنتم منتهون؟!»[١٩٩].

اعتدالهم بين النظرية والتطبيق:

وقال سفيان الثوري: «ما بلغني عن رسول الله ﷺ حديثٌ قطُّ إلا عملت به ولو مرّة»[٢٠٠].

وقال الحافظ ابن عساكر رحمه الله تعالى، عن جلوسه للتحديث عن رسول الله ﷺ: "لَمَّا عزمتُ على التحديث -واللهُ المطّلعُ، أنه ما حملني على ذلك حبُّ الرئاسة والتقدم، بل قلت: متى أروي كلَّ ما قد سمعته، وأيّ فائــدةٍ في كــوني أُخَلِّفُهُ بعدي صحائفَ؟!- فاستخرت الله، واستأذنت أعيان شيوخي ورؤســاء البلد، وطُفْتُ عليهم، فكلٌّ قال: ومَنْ أحقُّ بهذا منك؟! فشرعتُ في ذلــك في سنة ثلاث وثلاثين"[٢٠١] أي: وخمس مئة؟!.

---

(١٩٨) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء: ٩٠-٩١.

(١٩٩) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء: ٥٨١.

(٢٠٠) نفسه: ٥٨٤.

(٢٠١) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء: ١٤٥٧.

اعتدالهم في تلقيّ الحديث بين الغلوّ والتقصير:

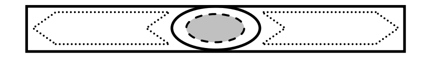
قال وكيع بن الجراح: "مَنْ طلب الحديث كما جاء فهو صاحبُ سنّة، ومن طلبه ليقوِّيَ به رأيَهُ، فهو صاحبُ بدعة"[٢٠٢].

قال أيوب السختياني؛ قال لي أبو قلابة: "يا أيوب إذا أحدث الله لك علماً؛ فأحدثْ له عبادةً، ولا يكن همك أن تحدِّث به"[٢٠٣].

قال فضيل بن عياض رحمه الله: قال لي ابن المبارك: "أكثركم علماً ينبغي أن يكون أكثركم خوفاً"[٢٠٤].

قال الثوري: "ما مِن عملٍ أفضل من طلب الحديث، إذا صحت النية"[٢٠٥].

قال حماد بن سلمة: "من طلب الحديث لغير الله مَكَرَ به"[٢٠٦].



(٢٠٢) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء: ٦٩٧

(٢٠٣) جامع بيان العلم وفضله، ١/٧٠٨.

(٢٠٤) جامع بيان العلم وفضله، ١/٧٠٦.

(٢٠٥) في حلية الأولياء، ٦/٣٦٦.

(٢٠٦) تذكرة الحفاظ، ١/٢٠٣.

خاتمةُ هذا الموضوع

في نهاية الحديث عن هذا الموضوع، يتعيّنُ علينا أن نَقِفَ عند واجبنا، والدروسِ والعبر التي يشهدُ بها جهود أولئك الأئمةِ الأسلافِ الصالحين، وعنايتُهم بالسنة، ويشهدُ بها منهجهم الذي ساروا عليه في أداء مهمّتهم.

فماذا عسى أن نقول بعد أن وقفنا على طرفٍ موجزٍ جداً من هذا التاريخ الحافل بالعلم والنور والهداية؟!.

ليس أمامنا الآن إلا أن نلتفت إلى أنفسنا، وإلى واقعنا، وإلى واجبنا.

فهذا هو التاريخ يا أخي، الذي سطّره الأسلاف الصالحون، إنهم أسلافك يا أخي، إنهم أجدادك، إنك تنتسب إليهم، وتنتمي إليهم، إن لم يكن ذلك بسلسلة النسب فبوَشِيجةِ الدِّين والإيمان بالله تعالى وبرسالة محمد ﷺ!.

لقد سطّروا هذا التاريخَ المضيء، التاريخَ المفخرةَ، لقد سطّروه، ليس بأقلامهم فحسب، ولكن بإيمانهم أيضاً، وأخلاقِهم، وأعمالِهم، وبدمائهم وأرواحهم!.

فهذا هو التاريخ، وهذا هو العِلم والهدى والنور والإيمان! فماذا عن الحاضر والواقع؟!.

ماذا عن واقعك أنت أيها الأخ القارئ أو المستمع؟!.

ماذا عملت؟!.

وماذا ستعمل؟!.

وما الفائدة التي جَنَيتَها مما عَلِمتَه من هذه الحقائق؟!.

هل سيتحول ذلك في ذهنك وفي ذاكرتك وواقعك إلى تاريخٍ جميلٍ فحسبُ؟!.

أم سيتحول إلى علمٍ نافعٍ، وعملٍ صالحٍ، يَشْغلانك عمّا دُونهما من شئون هذه الحياة الدنيا؟!.

هل سيتحول علمك إلى مَوْطن القدوة فيما جاء عن الحافظ ابن عساكر رحمه الله تعالى، حين قال عن جلوسه للتحديث عن رسول الله ﷺ: "لَمَّا عزمتُ على التحديث -واللهُ المطّلعُ، أنه ما حملني على ذلك حبُّ الرئاسة والتقدم، بل قلت: متى أروي كلَّ ما قد سمعته، وأيّ فائدةٍ في كوني أُخَلِّفُهُ بعدي صحائفَ؟!- فاستخرت الله، واستأذنت أعيان شيوخي ورؤساء البلد، وطُفْتُ عليهم، فكلٌّ قال: ومَنْ أحقُّ بهذا منك؟! فشرعتُ في ذلك في سنة ثلاث وثلاثين"[٢٠٧] أي: وخمس مئة؟!.

إنه لا يصح لنا أبداً، يا أحفاد أولئك الأئمة، أن نَغْفُلَ عن الدروس والعبر في هذا التاريخ الحافل بالفضائل؛ وذلك لأنهم أسلافنا الصالحون، ولأن هذا التاريخ-مِن حيث هو- قد امتدّ عملاً ووثائق لا يتطرق إليها الشك تنقّلتْ إلينا عِبَراً عَبْرَ القرون حتى وصلتْ إلينا، وكأنها تاريخٌ وواقعٌ معاً، نشاهدهما ونراهما ونقرؤهما، فكأن هذا التاريخ قد تحوّل إلى واقع يراه كل مَنْ يريد أن يُبْصِرَ، ووَصَلَ إلينا هذا الدين بسبب هذا التاريخ، أَوثقَ ما يكون غضاً طرياً كما نَزَلَ على نبينا محمد ﷺ.

---

(٢٠٧) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء: ١٤٥٧.

فلا يستقيم أن نَغْفل، أو ننسى الدروس والعبر في عنايتـــهم بالـــسنة، وفي جهودهم، وفي منهجهم.

وختاماً لعلني أتذكر وأعي، ولعلك يا أخي تتذكر وتعي:

- إخلاصَ أولئك الأئمة من المحدّثين، ونُدْرك واجبنا تجاه الإخلاص المطلـــوب منّا، فنكون مخلصين.
- ولعلنا نتذكّر اعتدالهم وفقههم، ونُدْرك واجبنا تجاه هذا المطلب الشرعيّ المهم.
- ولعلنا نتذكر أخلاقهم الحميدة، ونَلْتفت إلى واجبنا في أنفسنا تجاه هذا الخلق الفاضل.
- ولعلنا نتذكر آثارهم ومؤلفاتهم، فنَعُدّها من حُججِ الله علينا، فنقدّرها حـــق قدْرها، ونقوم بواجبنا تجاهها.
- لعلنا نتذكر ذلك كله، ونحوّل الذكرى إلى يقينٍ وعلمٍ وعملٍ، فَنَصِلَ الحاضر بالماضي: إيماناً وعلماً وخُلقاً وعملاً وتُقىً.

اللهم جنّبنا الزلل، وحقّقِ الأمل.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



فهرس الآيات القرآنية

الآيـــــة	الصفحة
﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا...﴾	٨٧
﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾	٦١، ٦٣
﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ﴾.	٦٠
﴿فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُوْنَ﴾	١٥٣
﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾	١٥٦
﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُل اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾	٦٠
﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ﴾	١٦٠
﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾	٦١
﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾	٦١
﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ(١٩١)...﴾	٦٤
﴿وَلا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمهَا فَإِنَّه آثِمٌ قَلْبه﴾	١٣
﴿وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾	١٥
﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى(٣) إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى(٤)﴾	٦١
﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً﴾	١٥٩

فهرس الأحاديث النبوية

الحديث	الصفحة
إِزْرَةُ المؤمنِ إلى أنصاف ساقيه، لا جُناح عليه فيما	١٥٧
إنّ كذباً عليّ ليس ككذبٍ على غيري	١٥٢
أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم عليّ صلاة	١٠٣
لا تأخذوا العلم إلا ممن تجيزون شهادته	١٠٣
لا تزال طائفة من أمتي على الحق حتى تقوم الساعة...	١٠٢
لستَ يا أبا بكر ممن يفعله خُيَلاء	١٥٧
لكِنِّي أَصُومُ وأُفْطِرُ، وأَقُومُ وأنامُ، وآتِي النِّساءَ	١٥٩
ما أسفل من الكعبين من الإزار ففي النار	١٥٧
مَن رَوى عنِّى حديثاً يُرى أنه كَذِب فهو أحدُ الكاذِبِيْن	١٥٢
من يَقُلْ عليَّ ما لم أَقُلْ فلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ من النار	١٥٢
وهل ترك لنا عقيل من دار؟	١٨

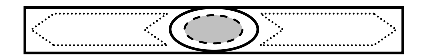
فهرس المصادر والمراجع

- أبجد العلوم، لصديق بن حسن القنوجي، دمشق، ١٩٧٨م.
- الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان، ترتيب الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي، -٧٣٩هـ، بتحقيق كمال يوسف الحوت، بـــيروت، دار الكتـــب العلمية، ط.الأولى، ١٤٠٧هـ.
- الآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح المقدسي، مؤسسة الرسالة، ط.٢، ١٤١٧هـ.
- تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي، بيروت، دار الكتاب العربي.
- تاريخ دمشق، للحافظ المزي، مخطوطة المكتبة الظاهرية.
- تذكرة الحفاظ، للذهبي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، بـــدون تـــاريخ الطبع، (مصوّرة دائرة المعارف العثمانية).
- تهذيب التهذيب، لابن حجر العسقلاني، بيروت، مؤسسة الرســالة، ط.١، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.
- تهذيب الكمال، للحافظ المزِّي، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط.٤، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م.
- توثيق النصوص وضبطها عند المحدِّثين، د.موفق عبد القادر، مكة المكرمـــة، المكتبة المكية، ط.١، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م.
- جامع بيان العلم وفضله، ابن عبد البر، الدمام، دار ابـــن الجـــوزي، ط.٢، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.

- الحلية، لأبي نعيم، بيروت، دار الكتب العلمية.
- دراسات في الحديث النبوي، محمد مصطفى الأعظمي، الريـــاض، مطـــابع جامعة الرياض، بدون تاريخ.
- الرسالة المستطرفة، للكتاني، دمشق، دار الفكر، ط.٣، ١٣٨٣هـ-١٩٦٤م، وقد طُبع عدة طبعات بعد هذه الطبعة.
- سنن ابن ماجه، القاهرة، مطبعة عيسى البابي الحلبي.
- سنن الترمذي، بيروت، دار الكتب العلمية، بدون تاريخ.
- السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، للسباعي، بيروت، المكتب الإسلامي، ط.٢، ١٣٩٨هـ- ١٩٧٨م.
- سير أعلام النبلاء، للذهبي، بيروت، مؤســـسة الرســـالة، ط.١، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.
- صحيح ابن حبان، (ترتيب ابن بلبان)، بيروت، دار الكتب العلمية، ط.١، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.
- صحيح البخاري، (نسخة فتح الباري)، القاهرة، المكتبـــة الـــسلفية ومكتبتـــها، ١٣٨٠هـ.
- صحيح مسلم، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط.١، ١٣٧٤هـ-١٩٥٥م.
- ضعيف سنن الترمذي، محمد ناصر الدين الألباني، بيروت، المكتب الإسلامي، ط.١، ١٤١١هـ-١٩٩١م.
- طبقات الشافعية الكبرى، لتاج الدين عبد الوهاب السبكي، القاهرة، مطبعة عيسى البابي الحلبي، ط.١، ١٣٨٣هـ -١٩٦٤م.

- علوم الحديث، لابن الصلاح، بتحقيق نور الدين عتر، المدينة المنورة، المكتبة العلمية، ط.٢، ١٩٧٢م.
- عناية المحدثين بتوثيق المرويات، د.أحمد محمد نور سيف، بيروت، دار المأمون، ط.١، ١٤٠٧هـ.
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، القاهرة، المكتبة السلفية ومكتبتها، ١٣٨٠هـ.
- فهرسة، لابن خير، فهرسة ما رواه عن شيوخه من الدواوين المصنفة في ضروب العلم وأنواع المعارف، الشيخ الفقيه المقرئ المحدث المتقن: أبو بكر محمد بن خير بن عمر بن خليفة الأموي الإشبيلي، (٥٠٢-٥٧٥هـ) (١١٠٨-١١٧٩م)، نشره "فرنسشكه قداره زيدين"، وتلميذه "خليان رِبَارة طرغوه"، ط.٢، ١٢٨٢هـ-١٩٦٣م.
- فهرس الفهارس، عبد الحي الكتاني، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.
- المجروحين، لابن حبان، حلب، دار الوعي، ط.١، ١٣٩٦هـ.
- المستخرج على صحيح مسلم، لأبي نُعيم، ط. دار الكتب العلمية، ط.١، ١٩٩٦م.
- المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية بمصر، بإشراف عبد السلام هارون، بيروت، دار إحياء التراث العربي.
- الموضوعات، علي بن عبد الرحمن أبو الفرج بن الجوزي، لبنان، بيروت، دار الكتب العلمية، ط.١، ١٤١٥هـ.

- نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء، محمد حسن عقيل موسى، جدة، دار الأندلس، ط.١، ١٤١١هـ -١٩٩١م.
- النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير: مجد الدين أبو السعادات، المبارك بن محمد الجزري، تحقيق محمود محمد الطنـــاحي، د.ت.م. نـــشر المكتبـــة الإسلامية.
- الوافي بالوفيات، صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، اعتنـــاء "هلمـــون رينـــز"، مؤسسة الكتب الثقافية، ١٣٨١هـ-١٩٦٢م.
- الوسيط في علوم ومصطلح الحديث، لأبي شهبة، جدة، عالم المعرفـــة، ط.١، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.



صَدَرَ للمؤلف

مما صَدَرَ للمؤلف الكتب التالية:

- دعوة إلى السنة في تطبيق السنة منهجاً وأسلوباً، دار القلم، الدار الشامية، بيروت، ط.الأولى١٤١٠هـ-١٩٩٠م. والطبعة الثانية، الرياض، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.
- استخراج الآيات والأحاديث في الأبحاث العلمية والدعوية: الحاجة إليه ووسائله وطُرقه، الرياض، دار المسلم، ط.الأولى ١٤١٣هـ.
- قواعد ومنطلقات في أصول الحوار وردِّ الشبهات، الرياض، دار المسلم، ط.الأولى١٤١٤هـ.
- حوار حول منهج المحدثين في نقد الروايات سنداً ومتناً، الرياض، دار المسلم، ط.الأولى١٤١٤هـ.
- الأخلاق الفاضلة قواعد ومنطلقات لاكتسابها، الرياض، ط.الأولى ١٤١٧هـ.
- أزواجٌ بالكذب، جدة، دار الأندلس الخضراء، ١٤٢٠هـ.
- كلمات في مناسبات: -أقوالٌ وكلماتٌ قُلتُها في مناسباتٍ ما بين جِدٍّ في جِدٍّ، أو جِدٍّ في صورة هزلٍ- الرياض، ط.الأولى، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.
- الإمام الدارقطني وآثاره العلمية-ويشتمل على دراسةٍ مفصّلة لكتابه: "السنن"، جدة، دار الأندلس الخضراء، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.
- مَنْ تُكُلِّمَ فيه وهو مُوَثَّق أو صالح الحديث، للإمام الذهبي، تحقيق ودراسة، الرياض، ط.الأولى، ١٤٢٦ه-٢٠٠٥م.
- طريقُكَ إلى الإخلاصِ والفقه في الدين، جدة، دار الأندلس الخضراء، ط.الأولى، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م.
- نزهة النظر في توضيح نخبة الفِكَر في مصطلح أهل الأثر، للإمام ابن حجر،، تحقيق وتعليق، الرياض، ط.الثانية، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.
- مدخل لدراسة مشكل الآثار، الرياض، ط.الأولى، ١٤٢٨ه-٢٠٠٧م.
- فقْه حديث خُلُوف فم الصائم، الرياض، ط.الأولى، ١٤٢٨ه-٢٠٠٧م.

هذا الكتاب

- شهادة حق، رأيتُ من الواجب عليّ أداءها؛ لأني قد علمت الحقيقة واطّلعتُ عليها جملة وتفصيلاً. والشهادة واجبٌ أداؤها، ﴿وَلا تَكْتمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتمهَا فَإِنَّه آثِمٌ قَلْبه﴾! ولاسيما حين يرى الشاهدُ المبطلين والظالمين يتطاولون على الحق وعلى صاحب الحق ليخفوه، أو يكتموه، أو يتنقّصوه، ويقلبوا الحقيقة!

  إنها شهادة حق حول منهج المحدثين في نقْد الروايات سنداً ومتناً.
- فيه إجمالٌ لأوصاف المحدِّثين، رحمهم الله تعالى، وما كانوا عليه مِن شظف العيش في سبيل الحفاظ على حديث رسول الله ﷺ، وما قدّموه من تضحيات في هذا السبيل.
- فيه قراءةٌ جديدةٌ لشروط المحدِّثين لقبول الرواية، واستجلاءٌ لمقتضى هذه الشروط في نقْل هذا الدِّين.
- فيه بيانٌ لعناية السلف بالسنّة النبويّة، وتفصيلٌ لتلك الجهود، ومنهج عنايتهم بها، معالمه، وإشادةٌ وإثبـــاتٌ للحقيقة الرائعة التي تؤكِّد منهج المحدِّثين وتفرُّدَهُ في باب التوثيق، وأنه منهجٌ لا مزيد عليه في هذا الباب.
- هذا الكتاب بيانٌ لطريقة توثيق السنّة النبوية، وإجمالٌ للجهود التوثيقية التي بذلها أئمة الحديث.
- إنه لا يصح لنا أبداً، يا أحفاد أولئك الأئمة، أن نَغْفُلَ عن الدروس والعبر في هذا التاريخ الحافل بالفضائل؛ وذلك لأنهم أسلافنا الصالحون، ولأن هذا التاريخ–من حيث هو– قد امتدّ عملاً ووثائق لا يتطرق إليها الشك تنقّلتْ إلينا عبَراً عَبْرَ القرون حتى وصلتْ إلينا، وكأنها تاريخٌ وواقعٌ معاً، نشاهدهما ونراهما ونقرؤهما، فكأن هذا التاريخ قد تحوّل إلى واقع يراه كل مَنْ يريد أن يُبْصِرَ، ووَصَلَ إلينا هذا الدين بسبب هذا التاريخ، أَوثقَ ما يكون غضاً طرياً كما نَزَلَ على نبينا محمد ﷺ.

  فلا يستقيم أن نَغْفل، أو ننسى الدروس والعبر في عنايتهم بالسنة، وفي جهودهم، ومنهجهم.
- فهذا هو التاريخ يا أخي، الذي سطّره الأسلاف الصالحون، إنهم أسلافك يا أخي، إنهم أجدادك، إنك تنتسب إليهم، وتنتمي إليهم، إن لم يكن ذلك بسلسلة النسب فبِوَشِيجةِ الدِّين والإيمان بالله تعالى وبرسالة محمد ﷺ!.

  ماذا عن واقعك أنت أيها الأخ القارئ أو المستمع؟!.

  ماذا عملت؟!. وماذا ستعمل؟!.

  وما الفائدة التي جَنَيْتَها مما عَلِمتَه من هذه الحقائق؟!.

  هل سيتحول ذلك في ذهنك وفي ذاكرتك وواقعك إلى تاريخٍ جميلٍ فحسبُ؟!. أم سيتحول إلى علمٍ نافعٍ، وعملٍ صالحٍ، يَشْغَلانك عمّا دُونهما من شئون هذه الحياة الدنيا؟!.